

هرمان ملفل

أنا ومدخنتي

ترجمة

ثابت خميس النعماني



رواية

دار الشؤون الثقافية

للدراسات والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: أنا ومدخنتي
اسم المؤلف: هيرمن ملليل
اسم المترجم: ثابت خميس النعماني
الموضوع: رواية
عدد الصفحات: 68 ص
القياس: 14.5 × 21.5 سم
الطبعة الأولى: 1000 / 2018 م - 1439 هـ
ISBN: 978-9933-38-060-1

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب 4650

تلفاكس: +963 11 2314511

هاتف: +963 11 2326985

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org



دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع



Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

هیرمن ملزیل

أنا ومدخنتي

ترجمة: ثابت خميس النعماني

هيرمن ملفيل

Herman Melville

(١٨١٩ - ١٨٩١م)

وُلد في مدينة نيويورك عام ١٨١٩. وكان من أبرز الروائيين في أمريكا. كتب موبى ديك، وهي واحدة من أشهر الروايات الأدبية. ترجع شهرته إلى هذه الرواية بشكل رئيس، لكنَّ كثيراً من أعماله الأخرى هي أيضاً إبداعات أدبية عالية المستوى؛ تمتزج فيها الحقيقة والخيال والمغامرة والرمزية البارعة. كتب ملفيل عن تجاربه بطريقة جذابة جعلته أحد أكثر الكُتَّاب شعبية في زمانه. وقد أضفى على مغامراته خيالاً خصباً وشكلاً فلسفياً، إلى جانب مهارة فائقة في استعمال اللغة الإنجليزية الأمريكية.

يُعد ملفيل من الكتاب الذين يصعب وصفهم وإعطاء نمط قصصي معين لهم، فأدبه ينتقل من الرومانسية إلى الفلسفة إلى السيرة حيث يجول ملفيل في أعماق نفسه ويصف فلسفته في الحياة.

أهم أعماله: خيمة الهندي ١٨٤٧ - اومو ١٨٤٧ - السترة البيضاء ١٨٥٠ - موبى ديك (الحوت الأبيض) ١٨٥١ - بيير (الغموض) ١٨٥٢ - قصص من بياز ١٨٥٦ - ببلي باد، ١٩٣٤ - (بارتلي النساخ) - الصادرة عن دار نينوى عام ٢٠١٠.

أنا ومدختي، عجوزان مدخنان رماديا الرأس، مقيمان في الريف.
يمكنني القول إننا راسخان قديمان هنا؛ خاصة مدختي العجوز،
التي يزداد رسوخها كل يوم أكثر فأكثر.

ورغم أنني دائماً ما أقول، أنا ومدختي، كما اعتاد الكاردينال
وولسي^(١) أن يقول "أنا ومليكي"، فإن هذه الطريقة الأنانية في
الحديث، التي من خلالها أتقدّم على مدختي، جاءت بعيدة عن
الحقائق؛ في كل شيء، باستثناء التعبير السابق، فإن مدختي هي من
تتقدمني.

١ - Cardinal Wolsey: توماس وولسي (١٤٧٣ - ١٥٣٠): كاردينال إنجليزي،
حين أصبح هنري الثامن ملكاً كلفه بالعديد من المهام، وحظي بسلطة كبيرة حتى اعتبره
البعض ملكاً آخر. اهتم وولسي بفن العمارة، وخاصة بمنزله القديم قصر هامبتون
كورت، والذي ما زال باقياً حتى اليوم.

على بُعد ثلاثين قدماً من الطريق ذي الجوانب المعشوشبة، ترتفع مدختي - الهائلة، الضخمة على غرار هاري الثامن لو كان مدخنة - بكليتها أمامي وأمام كل مُلكياتي. هناك تقف بثبات فوق جانبٍ من أحد التلال، إن مدختي، مثل التليسكوب الوحش لأمير روس^(١)، تميل عمودياً لترتطم بقمر الشام، هي أول ما يرحب بعين المسافر المقرب، وليست بأخر ما تلقي عليه شمس الأصيل التحية. إن مدختي، تتقدمني أيضاً في استقبال بواكير فاكهة المواسم. والثلج الذي يغطي رأسها يسبق ذاك الذي يعلو قبعتي؛ وكل ربيع، كشجرة زان مجوّفة، تبنى أولى السنونوات أعشاشها فيها.

و لكن خلف الأبواب الداخلية، تتجلى رفعة مقام مدختي بكل جلاء. حين أكون جالساً في الغرفة الخلفية، على مبعدة من ذلك الشيء، واقفاً لاستقبال ضيوف (الذين، أشك بالمناسبة، بأنهم يكثر من الزيارة، لرؤية مدختي أكثر مني) أقف حينها، دون أن أتقدمها كثيراً، ولأكون دقيقاً، أقف خلف مدختي، التي هي، بالفعل، المضيف الحقيقي. وذلك ليس احتجاجاً مني، ولكن في حضرة من هم أفضل مني، أمل أن أكون على دراية بمنزلتي.

١ - Lord of Rosse: ويليام بارسون الثالث (١٨٠٧ - ١٨٤١): حاكم روس الثالث ويسمى أيضاً أمير أوكسمتاون، وهو فلكي إيرلندي وباني أكبر تليسكوب عاكس المسمى بـ"الليفيثان" في القرن التاسع عشر.

انطلاقاً من هذه الأسبقية المعتادة لمدختي عليّ، يصل الظن بالبعض إلى أنني قد رميت بنفسي في زقاق خلفي كثيب بكل معنى الكلمة؛ باختصار، إنني بكثرة وقوفي خلف مدختي ذات الطراز القديم، تحتم علي أيضاً أن أتخلف عن العصر، تماماً مثل التخلف عن اللحاق بأي شيء آخر^(١). ولكن لأقول الحقيقة، لم يسبق لي أبداً أن كنت صديقاً قديماً جريئاً، أو ما يدعوه جيراني القرويون بشخص ذي يدين منبسطين إلى الأمام^(٢). فعلاً، تلك الأقاويل عن تخلف يديّ، كانت صحيحة إلى حد بعيد، لأن لي طريقة غريبة في التسكع ويدي موضوعتان خلف ظهري إذا ما أردت القيام بشيء ما. وفيما يتعلق بنزوعي للحمية بشكل عام، فهو أمر مؤكد، لإنني أستحضر حماية ظهر مدختي - التي هي، بالمناسبة، أمامي في هذه اللحظة - وهذا، صحيح أيضاً، في كلا الصورتين كنزوة وحقيقة. بإيجاز، إن مدختي تفوقني مقاماً؛ كتفوقها أيضاً، بذلك الانحناء المتواضع الذي أؤديه أمامها وأنا ممسك بالمجرفة والملاقط. أنني أشبه بخادم لها؛ مع أنني لا أقدم لها أي خدمات إطلاقاً، ولا هي تُملي علي شيئاً؛ لكن، إن كان ثمة شيء ما في قعرها، فمن الأفضل أن يؤخذ به إلى جانب الآخر.

١ - كناية على التأخر والتمسك بالماضي.

٢ - أي شخص متطلع للمستقبل.

مدختتي إقطاعية كبيرة هنا - إن ذلك الشيء الضخم المستبد، لا يُظهر من هيئة المنزل الخارجية؛ إلا كل ما قد يظهر من أي منزل. وعلى جاري العادة، في كل جدل عمراي، كما سيظهر الكثير منها بعد قليل، فإن أقوى الحجج، كانت متأتية، لا من رغباتي، بل تبعاً لمدختتي التي تمتلك، إلى جانب العديد من الأشياء الأخرى، الخطوة بمركزية المنزل لنفسها، غير تاركة لي شيئاً إلا الزوايا والثغور الناتئة.

لكنني ومدختتي علينا أن نشرح؛ وبما أن كلينا سمين بالأحرى، قد يتوجب علينا في القول الإطناب.

في تلك المنازل التي هي على وجه التحديد بيوت مزدوجة - ويكون هذا، حين تكون الصالة في المنتصف - عادة ما تكون المواقد على جوانب متقابلة؛ بحيث إن كان فرد ما من سكان المنزل يدفع نفسه بنار تنقد في تجويف على الجدار الشمالي، قولوا إن فرداً آخر، شقيق ذلك السابق، ربما، قد يكون واضعاً قدميه فوق شعلة قبالة مدفأة في الجدار الجنوبي - هكذا يجلس الاثنان بإنصاف ظهراً لظهر. هل هذا شيء جيد؟ فلتعرضوا الأمر على أي إمرءٍ ذو حس أخويّ لائق. أفلا يكتنف الأمر إلى حد ما شيء من التكد؟ لكن من المحتمل جداً أن هذا الأسلوب في بناء المداخل جاء من مهندس معماري ابتلي بعائلة مُحبة للخصام.

مجدداً إذًا، تقريباً كل موقد عصري له أنبوب مدخنة منفصل - منفصل على طوله، من المدفأة وصولاً إلى قمة المدخنة. على الأقل هذا النوع من الترتيبات قد يعتبر مرغوباً. ألا يبدو هذا ضرباً من التعالي، والأناية؟ زد على ذلك، أن كل هذه الأنابيب المنفصلة، بدلاً من أن يكون لها أسس بنائها الخاصة، أو بدلاً من جمعها معاً في دعامة متحدة في منتصف المنزل - بدلاً من ذلك، أقول، أن كل أنبوب يُدس خلسة كخلايا النحل داخل الجدران؛ فتنشر تلك الأخيرة هنا وهناك، أو أنها مجوفة بدهاء، في كل مكان حرفياً، وأيضاً، النتيجة أنها، تكون واهية بشكل أو بآخر، إن السبب الرئيس وراء أسلوب بناء المداخن هذا هو توفير المساحة بكل تأكيد. في المدن، حيث تباع الكثير منها - المساحات - بالبوصة، يتم الاحتفاظ بمساحة صغيرة لمدخنة مبنية على أسس رحة؛ وكمعظم الرجال النحيفين، الذين يبدو عموماً طوال القامة، كذلك هو الأمر مع هذه المنازل، التي تفتقر للاتساع، يجب التطاول في بنائها. هذه الملاحظة تحمل وجه الحقيقة حتى فيما يتعلق بالكثير من المساكن الأنيقة، التي بناها أرفع الأسياد مقاماً. ومع هذا، حين أراد ذلك السيد النبيل، لوي لو غراند الفرنسي، بناء قصر لصديقتة، السيدة، المدام دو مانتون^(١)، بناه ولكن ثمة قصة شاعت - بأنه في

١ - قد يكون ما يقصده ملفيل قوله هو Madame de Maintenant بمعنى سيدة الوقت الحالي، حيث عرف عن لويس الرابع عشر ميله إلى تغيير عشيقاته بشكل دائم.

الحقيقة بناه على طراز كوخ. ولكن، لكم كان رباعي الأضلاع ذاك خارجاً عن المؤلف، فسيحاً، وعريضاً بفدادينه الأفقية، لا الرأسية. إن قصرأ كهذا، بكل ما يزرخ به طابقه اليتيم من روعة الرخام اللانغوديكي^(١)، لا يزال قائماً حتى هذا اليوم في حدائق فيرساي. يمكن لأي رجل أن يشتري قدماً مربعاً من أرض ما ويغرس سارية إستقلال فيها؛ لكن الأمر يتطلب ملكاً ليعزل فداديناً كاملة لأجل جراند تريانون^(٢).

و لكن ما أصعبه من أمرٍ في هذه الأيام؛ علاوة على ذلك، فإن ما أسس على ضرورة ذات يوم، صار الآن مطية للتبجح. ثمة منافسة واسعة النطاق في المدن لتعمير المباني الطويلة. إذا ما بنى سيد منزله بارتفاع أربعة طوابق، وجاء آخر إلى جواره وبنى بارتفاع خمسة طوابق، فإن السابق، كي لا يُنظر إليه بدونية، يرسل في طلب مهندس المعماري فوراً مُصنفاً بطلب طابق خامس وسادس فوق أربعته السابقة. ولن يركن ذلك السيد للراحة حتى يصل لمبتغاه، حتى يستولي

١ - يستخرج الرخام اللانغوديكي الأحمر من عدة أماكن في منطقة لانغودوك-روسبّو وغالباً ما يستخدم في الهندسة المعمارية؛ كبلاط الجدران والمواقد ويطمّم بالخشب والعاج.

٢ - اسم القصر المقصود وهو يتخذ مكاناً في الجزء الشمالي الغربي من ميدان فيرساي، شُيد بناء على طلب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر ليكون مُعتزلاً له ولعشيقته آنذاك فرانسواز آتيناوي المعروفة بهاركيزة مونتيسبون.

على الطريق في وقت الغسق ويلاحظ كيف أن طابقه السادس يعلو فوق خامس جاره - وعندها فقط سيغمره شعور عظيم بالرضى.

يبدو لي، أن هؤلاء الناس، بحاجة إلى مجاورة الجبال، حتى تستخرج منهم فكرة محاكاة الارتفاع تلك.

إذا ما اعتُبر منزلي شديد الاتساع، ومتشامخاً بأي حال، فحري أنني قد أبدو مهتماً بالمناظرات بناءً على ما سبق ذكره، لكنني لم أفعل شيئاً سوى أن طويت نفسي عنها خلف قناع الرأي العام، مدغداً بكياسة من تحته غروري الذاتي. سوء فهم كهذا يجب أن يمتحي، ذلك بسبب تنازلي الصريح عن تلك الأرض المجاورة لمستنقع أشجار جار الماء الخاص بي، والتي بيعت الشهر الماضي لقاء عشرة دولارات للقدان، ولقد توقعت أن يكون هذا شراءً مُستعجلاً؛ لأن البيوت الواسعة في هذه النواحي فيها الكثير من المساحة، وهي زهيدة الثمن. زهيدة هي - حقاً إنها بسعر التراب - تلك التربة، حتى أن أشجار دردارنا دفعت بجذورها فيها، وعلقت أغصانها الكبيرة فوقها، بكل طيش وإسراف. أضف إلى ذلك أيضاً أن كل المحاصيل تقريباً، بشت بثوثها فيها، حتى البازلاء والفجل. ثمة مزارعون من بين ظهرانينا، ممن هم على استعداد ليمروا على حقولهم ذات العشرين فداناً، واخزين الأرض بأصابعهم، مُسقطين هنا وهناك بذرة خردل، حتى ليُظن أنهم

فلاحون بئسبون، محدودي العقل. إن نظرة على أشجار الهندباء في مروج النهر، ونباتات "لا تنسني" بمحاذاة دروب الجبل، تجعل المرء يُدرك فوراً أنها لا تترك وضعاً اقتصادياً على حاله. في بعض المواسم، أيضاً، تطلُّع بذور ذرتنا هنا وهناك على رمح، يبدو منفرداً ووحيداً كبرج كنيسة. غير عابئٍ بحشد نفسه أكثر، فمن المعلوم أن هنالك صفقة رابحة من المساحات. العالم شاسع، العالم أمامنا برمته، تقول الذرة. والأعشاب الضارة، أيضاً، من المذهل كيف تنتشر. لا مثيل لحصادها - بعض مراعيها تصنف كمناطق الإلزاس^(١) للأعشاب الضارة. كذلك الأمر بالنسبة إلى الحشائش، كل ربيع يبدو الأمر كما لو أن كوسوث^(٢) يخطب في من يطلق عليهم إسم الشعوب. الجبال، أيضاً، في اجتماع معسكرها المعتاد. للسبب نفسه، للاكتفاء الكلي بالمساحة، ظلالنا تسير وتنتكس، مروراً بحفرها وتحولاتها البديعة،

١ - الإلزاس: بالفرنسية: (Alsace)، بالألمانية: (Elsass) هي منطقة ثقافية، ولغوية، وتاريخية، وإدارية في شرقي فرنسا وعاصمتها هي ستراسبورغ. كانت تاريخياً محل نزاع مع ألمانيا.

٢ - Lajos Kossuth: ليشوس كوسوث (١٨٠٢ - ١٨٤٩) محام هنغاري، عمل صحفياً وسياسياً وأصبح حاكم ولاية ثم رئيس المملكة الهنغارية خلال ثورة (١٨٤٨ - ١٨٤٩)، اشتهر بموهبته الكبيرة في الخطابة والمناظرات السياسية، كما كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة جعلته مثلاً لقوة التأثير على الآخرين.

مثل الحارس الإمبريالي العجوز^(١) في الشومب دو مارس^(٢). أما بالنسبة للتلال، خاصة حيث تتقاطع بدروبها المطلة على قرانا المتعددة، فإنها تعطي إشعاراً لكل من يهمهم الأمر، أن في مقدورهم أن يأتوا ليحفروها ويبحثوها، دون أن يدفعوا سنتاً واحداً، لا شي سوى الخطوة بالتقاط ثمار توت العليق. إن الغريب الذي دُفن ذات يوم هنا، أي مالك أرض لبرالي الهوى، من بيننا سيحقد عليه لنزوله عمق ستة أقدام في هذه المروج الصخرية؟

مع ذلك، في النهاية فإنها تظل زهيدة الثمن، كحال أرضنا، ومع أنها تُداس تحت الأقدام، أنا، عن نفسي، فخور بها لما تحوز عليه؛ وخصوصاً بأسودها الثلاثة العظيمة - السنديانة الكبيرة، جبل أوغ، ومدختي.

١ - old imperial guard: بدأ الحرس الإمبريالي كمجموعة صغيرة من نخبة الجيش الفرنسي تحت إمرة نابليون المباشرة، ولكنهم تطوروا بمرور الزمن وحظوا بمكانة خاصة، تم توزيع أعضائها إلى ثلاثة أقسام: الحارس العجوز والحارس النُصوف والحارس الشاب.

٢ - Champs de Mars: أو حقول المريخ، وهي ساحة عامة خضراء، تقع بالحي السابع من باريس، في المساحة المحصورة بين برج إيفل والمدرسة العسكرية، وتعتبر من أشهر الساحات في فرنسا؛ ليس فقط لما تعطيه من جمال بصري بل أيضاً لما شهدته من أحداث كثيرة منذ إنشائها.

هناك حيث نسكن أنا ومدختي، لا يتجاوز ارتفاع معظم المنازل طابقاً ونصف الطابق؛ وقليل منها ما يتجاوز الطابقين، يبلغ منزلي في العرض قرابة ضعف ارتفاعه، من العتبة حتى المزاريب - والفضل في هذا يعود لحجم مُكوّنه الأساسي - إلى جانب وضوح ذلك في هذا المنزل، كما في كل ربوع هذا البلد الكبير، ثمة ما يكفي من المساحة، وما يزيد عنها، لكلينا.

هيكل المنزل القديم مصنوع من الخشب - مع أنه يبيّن صلابة المدخنة، المصنوعة من الطوب. بينما المسامير الكبيرة المشكّلة طرّقاً، تُشد على الألواح، إلا أنها غير معروفة في هذه الأيام المُنحطّة، كذلك الأمر بالنسبة للطوب الكبيرة في جدران المدخنة، لا بد أن المهندس المعماري أثناء عمله على المدخنة كان يضع نُصب عينيه هرم خوفاً؛ فهي تبدو مماثلة لذلك المبنى الشهير، إلا أن معدل تضاوّلها باتجاه القمة قليل جداً، كما أنها مجتزأة، من منتصف المنزل تماماً حيث أنها ترتفع من القبو، مروراً بكل طابق بشكل متتال، حتى، أربعة أقدام مربعة، وهي تسرب المياه من عمود القمة^(١) المتبور من السقف، مثل حوتٍ ذي رأس سنداني^(٢)، يمخر عباب

١ - ridge-pole: ركيّزة أفقية تمتد مع قمة السقف وتثبت عليها العوارض.

٢ - anvil-headed whale: وهي نفس التسمية التي استخدمها إحسان عباس في ترجمته لرواية "موي ديك" لهيرمان ملفيل.

قمة موجه. معظم الناس، مع ذلك، معجبون بها، في تلك الجزئية بالذات، فهي تشكل مرصداً لتهدم متناسك.

إن سبب مظهرها الغريب بالأحرى يعود لأن قمة السقف تتناس بأرض شديدة الحساسية. كيف عساي أوضح هذا، منذ عديد من السنوات الماضية حين أصبح السطح الجملوني^(١) الأصلي للبيت القديم كثير التسريب، قام مالك مؤقت باستئجار زمرة من الخشابين، وبمناشيرهم المتقاطعة الضخمة، أخذوا ينشرون السقف الجملوني القديم حتى أزالوه، بكل ما فيه من أعشاش طيور، ونوافذ نمومة^(٢). واستبدل بسقف عصري، يصلح لبيت خشبي في سكة حديد لا لمسكن سيد في الريف القديم. هذه العملية - قشط الهيكل لما يقارب الخمسة عشر قدماً - كانت، ذات تأثير على المدخنة، أشبه بزحف مدود الربيع^(٣) الضخمة. مُحلّفة ورائها مياهاً ضحلة غريبة حول المدخنة - مما جعل مظهرها مُنحسراً. والآن وصل هذا الشخص إلى حد اقتطاع

١ - gable roof: جزء الجدار العلوي المثلث الشكل بين رأس الجزء العلوي وقاعدته؛
قمة مسنمة.

٢ - dormer windows: عبارة عن هيكل مسقوف على شكل مثلث، غالباً بجوي نافذة، تظهر بشكل عمودي فوق مستوى سطح السقف. تُعرف أيضاً باسم نافذة أعلى السطح.

٣ - spring tides: يقصد هنا بحركة المد والجزر في فصل الربيع بعد اكتمال البدر أو مع ظهور قمر جديد.

خمسة عشر قدماً من المدخنة نفسها. في الواقع إن قطع رأس مدختي الملكية العجوز، هو فعل راديكالي - إن لم يكن في هذا تلطيفاً للحقائق، يبدو لي أن هذا الشخص كان جزار طيور، ولهذا السبب، أسند إليه هذا النوع من عمليات الرقاب، كان من اللازم إرسال ذلك المالك السابق إلى الأجيال القادمة في نفس العربة مع كرومويل^(١).

بحفاظها على شكلها الهرمي، وسع تقليل المدخنة المفرط قمتها المستدقة. كان مُفراطاً، أنا أقول، لكن فقط في تقدير من لا يملكون عيناً تصويرية. لم أكرث، إن كان، من غير الملاحظ أن مدختي، كمواطنة حرة من هذه الأرض الحرة، واقفة على أساس مستقل بنفسه، يمر بها الناس، متسائلين كيف لمثل فرن القرميد هذا، كما يسمونها، أن يكون مستنداً على عوارض ودعامات خشبية فقط؟ لم أكرث؟ لسوف أقدم للمسافر كأساً من السويتشل^(٢)، إن هو ابتغاه؛ لكن هل أنا مُلزمٌ بإقناعه

١ - Cromwell: يحتمل أن ميلفل كان يقصد إما أوليفر كرومويل وهو قائد عسكري وسياسي إنجليزي، يعتبره البعض ديكتاتوراً وقد هزم الملكية في الحرب الأهلية لجعل إنجلترا جمهورية، أو توماس كرومويل وهو رجل دولة إنجليزي شغل منصب وزير الملك هنري الثامن وأدخل تحديثات في الحكومة من بالتقليص من سلطة النبلاء والكنيسة كما عرف عنه أنه كان مغروراً.

٢ - switchel: شراب مكوّن من مزيج الماء والخل وغالباً ما يتنكه بالزنجبيل والعسل والسكر الأسمر أو شراب القيقب.

بحلاوة المذاق؟ أصحاب العقول النيرة يرون، في بيتي القديم ومدختي، شبهاً بمباني إيليفنت وكاسل^(١) الطيبة القديمة.

كل القلوب المرهفة لسوف تتعاطف معي في ما سأضيفه الآن. إن العملية الجراحية، المشار إليها في الأعلى، كشفت بالضرورة للهواء المفتوح عن جزء قد كان تحت الغطاء عن المدخنة، وأراد أن يبقى كذلك، ولأنها، لم تُبنَ على ما يسمونه "طوب-الطقس"، كانت العاقبة، أن المدخنة، رغم هيكلها المتين، عانت وليس قليلاً، من العُرْضة الشديدة للتعرية؛ إضافة، لعدم قدرتها على أقلمة نفسها سابقاً، فبدأت بالتآكل - مُظهرة بقعاً شبيهة بتلك التي تظهر مع أعراض مرض الحصبة. عندئذٍ، كان المسافرون والعاثرون في طريقي، يلوحون بأيديهم، ضاحكين؛ "انظروا إلى أنف الشمع ذاك - أنظروا كيف يذوب!". ولكن لمْ أكرث؟ إن هؤلاء المسافرين أنفسهم سيبحرون في عُرْض البحر ليتأملوا منظر كينلورث^(٢) وهي تتفسخ، ولسبب وجيه جداً: أقول - أن التحلل من بين كل الفنانين التصويريين، لديه اليد

١ - elephant-and-castle: منطقة بجوار تقاطع الطريق الرئيسي في جنوب لندن.

٢ - Kenilworth: قلعة كينلورث الموجودة في مدينة تحمل نفس اسمها في إنجلترا. يعود تاريخها إلى العصور الوسطى ورغم انهيار الكثير من أجزائها إلا أن الأقسام المرممة اعتبرت تحفة معمارية قديمة ووجهة سياحية جذابة منذ القرن الثامن عشر.

الطولى، بالتعريشات. في الحقيقة، غالباً ما فكرت أن المكان الأنسب
لمدخنة قديمة هو إنجلترا القديمة المغطاة بتعريشات نبات اللبلاب.

عبئاً حذرتني - بكل ما يحتمل أن يكون ظاهراً عليها، من نية خفية،
منذ أمد طويل - زوجتي بشكل رسمي، أنه ما لم يتم عمل شيء ما،
وبسرعة، فسوف نحترق عن بكرة أبينا، بسبب الحفر المتهالكة من
الأجزاء المبقعة سالفة الذكر، حيث تلتقي المدخنة بالسقف. "يا
زوجتي" قلت أنا، "من الأفضل كثيراً أن يحترق بيتي تماماً، من أن يتم
زحزحة مدختي، حتى لبضعة أقدام فقط. يسمونها أنف الشمع،
حسن جداً، لست أنا بمن يقرص أنف سيدهته". لكن في النهاية فإن
الرجل الذي كان لديه رهن على المنزل ترك لي رسالة، يذكرني فيها أنه
إذا كان من المسموح لمدختي البقاء في تلك الحالة السيئة، فستكون
وثيقتي التأمينية لاغية. كان ذلك نوعاً من التنبيه حتى لا أكون
متهاوناً. في كل أنحاء العالم، يخضع الشكلي للمضموني. المرتهن لم يهتم،
فاهتم المرهن.

إذا فقدت أجريت عملية أخرى. أزيل أنف الشمع، ووضع واحد
جديد في محله. عذراً على التعبير - فقد وضعه بناءً أحول العينين، وقد
كان، في ذلك الوقت، يعاني من ألم موضعي في ذلك الجانب - فوقف
الأنف الجديد مائلاً قليلاً، في نفس الاتجاه.

إنني فخور بشيء واحد، على كلِّ، وهو أن الأبعاد الأفقية للجزء الجديد لم يتم تصغيرها.

رغم الاتساع الذي ظهرت عليه المدخنة من السقف، فهو لا شيء مقارنة براحبتها في الأسفل. في قاعدتها المتمركزة في القبو، الذي تبلغ مساحته بالتحديد اثنا عشر قدماً مربعاً؛ وبالتالي فهو يغطي بالتحديد مائة وأربعة وأربعين قدماً ظاهرياً. يا له من استيلاء على التيرا فيرما^(١) بالنسبة لمدخنة، ويا له من عبء هائل على هذه الأرض! في الحقيقة، كان هذا الأمر لأننا أنا ومدختني لم أي يكن لنا أي تدخل في تشكيل أي جزء من عِبئها القديم، حتى أن ذلك المتجول الهمام، أطلس القديم^(٢)، لم يكن ليستطيع البقاء بكل شجاعة تحت كومتها. إن هذه الأبعاد المعطاة، قد تبدو جميلة، ربما. لكن، شأنها شأن الحجارة الجبلجالية^(٣)، التي اتخذها يوشع^(٤) تذكراً لمروره على الأردن، أفلا يحق لمدختني أن تبقى، حتى هذا اليوم؟

١ - terra firma: كلمة من أصل لاتيني تعني الأرض الصلبة أو الأسطح الثابتة.

٢ - Atlas: كان أطلس أحد جبابرة الأساطير الإغريقية وقد حُكم عليه بأن يحمل عماد السماء للأبد بعد معركة الجبابرة Titanomachy.

٣ - Gilgal: جلجال؛ المكان الذي خيم فيه بني إسرائيل بعد عبورهم نهر الأردن، وتحكي المرويات اليهودية أن يوشع أمر قومه بأخذ أحد عشر حجراً من النهر، حجراً عن كل عشيرة؛ ووضعها هناك للذكرى.

غالباً جداً ما أنزل إلى قبوي، وبالغ الانتباه أعاين تلك المساحة
البنائية الشاسعة. أقف مطولاً، وأتأمل كثيراً، وأتفكر ملياً. إن لها
مظهراً كهنوتياً عميقاً أسفل القبو الظليل هناك، حيث تتواجد الكثير
من الممرات المقنطرة، وما يفوقها عدداً من الجداول الكئيبة، المماثلة في
ظلمتها، للأعماق الرطبة في الغابات البدائية. أسرّني هذه الفكرة بقوة
كبيرة، كنت متوغلاً في الإعجاب بمدختي بعمق كبير، حتى أنني في
يوم ما - كنت حينها فاقداً لصوابي بعض الشيء، حين أفكر بالأمر
الآن - أتيت بمجرفة من الحديدقة، استعددت للعمل، وأخذت أحفر
حول الأساس، خاصة عند تلك الأركان البعيدة. تدفّعتني بغموض
أحلامي بالضرب في نصب الأرض التذكاري المتهالك من الأيام
الغابرة هذا، بينما، وسط كل هذه الظلمة، تسرب ضوء الجنة، حينما
ألقي البتائون بأحجار الأساس، لعل قيظ شمسٍ أغسطسية قد
لفحهم، أو أن عاصفة مارسية قد قذفت بهم. ومرة حين كنت أجسها
بمجرفتي الصماء متحسناً، كم كنت مغتاضاً من تلك المقاطعة الوقحة
من أحد جيراني، والذي كان ينادي ليراني في شأن بعض الأعمال،
فأخبروه بأنني في الأسفل فقال أن لا حاجة لإزعاجي بالصعود

١ - Joshua: يوشع بن نون وهو الشخصية المحورية في سفر يوشع وقد قاد بني
إسرائيل بعد وفاة موسى. ويقال إنه كان أحد أنبياء الله في المرويات الإسلامية.

للأعلى، ولكن هو من سينزل إليّ؛ وهكذا، دونها إشعار، ودون سابق تنبيه، وجدني على حين غرة، أحضر في قبوي.

"تحضر بحثاً عن الذهب، سيدي؟"

"كلا، يا سيدي" أجبت أنا، محققاً، "كنت فقط - أمم - فقط - أقول إنني كنت فقط أحضر - حول مدختي".

"آه، تفكك التربة، لتجعلها تكبر، يا سيدي. أفترض أنك تعتبر مدختك صغيرة جداً؛ إنها بحاجة لمزيد من التطوير، لاسيما في القمة؟".

"سيدي!" قلت أنا، ملقياً بالمجرفة، "لا تتدخل في خصوصياتنا. أنا ومدختي -".

"خصوصيات؟".

"سيدي، إنني أرى في هذه المدخنة قليلاً من كونها كتلة بنائية وأكثر كشخص. إنها ملكة المنزل. وما أنا سوى شيء وضع ومُعذب".

في الحقيقة، ما كنت لأسمح لأي استهزاء بأن يظال شخصي أو مدختي، ولم يحدث مجدداً أن تحدث زواري عنها على مسمعي، دون إقران بعض المديح مع الذكر. إنها جديرة الاستحقاق باحترام معتبر. تقف هناك، منفردة ووحيدة - لا كمجلس وزراء من عشرة أنابيب، بل بكل قداسة جلالته في روسيا، اتحاد قوامه مستبد واحد.

حتى بالنسبة إلي، تبدو لي أبعادها، في أوقات ما، مذهلة. إنها لا تبدو كبيرة جداً - لا، ليس حتى في القبول. بالعين المجردة، حجمها قد يبدو كذلك لكن يستعصي تقديره تماماً، لأن جانباً واحداً فقط يمكن تلقيه منها في كل مره؛ وقل أن جانباً واحداً يمكنه أن يُظهر فقط اثني عشر قدماً، إن هذا قياس خطي. لكن من ثم، كل جانب آخر يبلغ طوله اثني عشر قدماً؛ ومن الواضح أن المجموع يشكل مربعاً، واثنا عشر في اثني عشر مرة يساوي مائة وأربعة وأربعين. وهكذا، يمكن الحصول على تصوّر كافٍ عن حجم هذه المدخنة فقط بنوع من العمليات الحسابية المتقدمة بواسطة معادلة أقرب لتلك الأساليب التي تُحسب بها المسافات المذهلة للنجوم الراسخة.

يصعب القول، أن جدران منزلي خالية تماماً من المواقد. فهي كلها تجتمع في المنتصف - في المدخنة المركزية الكبيرة الوحيدة، فوق الجوانب الأربعة كلها والتي هي عبارة عن مدافئ - صفيين من المواقد - وبذلك عندما، يدفع أفراد عائلتي وضيوفي أنفسهم في مختلف الحجرات، ذات ليلة شتائية باردة، قبل الانكماش على أنفسهم، ومع أنهم قد لا يكونوا قد فكروا بهذا الشكل وقتها، تبادل وجوههم النظرات لبعضها، أجل، إن أقدامهم كلها تشير إلى مركز واحد؛ وإذا ما خلدوا إلى النوم في مخادعهم، ينامون جميعاً حول مدخنة دافئة

واحدة، ككثير من الهنود الايروكويين^(١)، في الغابات، الذين يتحلقون حول كومتهم الوحيدة من الجمر. وتماًماً كما يتم تجهيز نار الهنود وتقديمها، ليس لإبقائهم مرتاحين فقط، وإنما أيضاً لإبعاد الذئب، والوحوش الضارية الأخرى، كذلك هي مدختي، بدخانها الظاهر في القمة، تبعد اللصوص المتسكعين عن المقاطعات - ما الذي عساه يجعل لصاً أو قاتلاً يتجرأ على اقتحام مسكن، مدخته تصدر مثل هذا الدخان المتواصل - منذرة بأنه إن لم يكن النزلاء نشطين، فنيرائهم كذلك على الأقل، وفي حالة حدوث إنذار، فمن السهل إشعال الشموع، إن لم نقل شيئاً عن البنادق.

لكن بفخامة كفخامة المدخنة - أجل، إنها أشبه بمذبح عالٍ ضخمة -، من الخلق الاحتفال بهذه الكتلة المباركة أمام بابا روما، وكل كاردينالاته، ولكن هل يوجد شيء مثالي في هذا العالم؟ يوليوس قيصر، ألم يكن شديد العظمة، قيل أن بروتوس وكايوس وأنتوني والبقية كانوا أكثر منه عظمة. مدختي، ألم تكن عظيمة في حجمها، إلا أن حجراتي

١ - Iroquois Indians: الإيروكوي، اسم رابطة قبائل الأمريكيين الأصليين، في فترة الاستعمار كانوا معروفين بعصبة الإيروكوي ولاحقاً بجلف الإيروكوي وساهم الإنجليز بالأمم الخمس، وتتألف من قبائل: موهاك، أونينداجو، أونايذا، كايوجا، سانيجا، ولاحقاً انضمت إليهم قبيلة تاسكورورا ليصبح اسمها "الأمم الست".

كانت أكثر اتساعاً. كم مرة أخبرتني زوجتي بكل رثاء، أن مدختي، شأنها شأن الأرستقراطية الإنجليزية، تلقي من حولها بظل منكمش. إنها تؤكد على أن تلك المضايقات المنزلية تنشأ - بشكل أكثر تحديداً من التوسط العنيد لموقع المدخنة. اعتراضها الأكبر هو أنها تنتصب في منتصف الطريق؛ حيث يفترض أن تكون هناك صالة استقبال جميلة. في الحقيقة، لا وجود لصالة بأي مكان في المنزل - لاشيء سوى موضع تنزيل مربعي الشكل، إذا ما دخلتم من الباب الأمامي الواسع. إنه موضع تنزيل كاف لمساحة غرفة، إني أعتزف بذلك، لكنه لا يرقى إلى منزلة صالة. الآن، بما أن الباب الأمامي في منتصف مقدمة المنزل تماماً، فهو يقابل المدخنة داخلياً. في الواقع، إن الجدار المقابل لموضع التنزيل تشكله المدخنة فقط، وبالتالي هو متأث من التناقص التدريجي للمدخنة - يبلغ عرضه أقل بقليل من اثني عشر قدماً. يتسلق المدخنة في هذا الجزء سُلّم - بثلاث منعطفات، وثلاث مواضع تنزيل ضئيلة، تتصاعد نحو الطابق الثاني، حيث يوجد هناك - ما يشبه رواقاً ضيق المساحة، فوق الباب الأمامي، يقل طوله عن اثني عشر قدماً، يقود لغرفٍ على كلا الجانبين. هذا الرواق، بالطبع، مُسيّج؛ وبالتالي، بالنظر إلى الأسفل فوق السلم، وكل مواضع التنزيل تلك معاً، بالإضافة لتلك الرئيسية في القاع، تبدو ذات شبه غير قليل بشرفة للموسيقين، كتلك الموجودة في بعض المساكن القديمة البهيجة، من العصور الإليزابيثية. هل

أحدثكم عن نقطة ضعف؟ تعزّ علي بيوت العنكبوت هناك، وفي أوقات كثيرة أقبض فيها على الشمطاء^(١) بالجرم المشهود وهي تكنسها بمكنستها، فتحصل بشأنها الكثير من المشاحنات مع زوجتي وبناتي.

و الآن السقف، بالحديث عن المكان الذي يمكنكم دخول المنزل منه، فذاك السقف، هو في الواقع، سقف الطابق الثاني، لا الأول. الطابقان الاثنان جُعلا واحداً هنا؛ لكي يتصاعد هذا السلم الملتف، الأمر يبدو كما لو أنكم ذاهبون إلى الأعلى داخل برج فارغ الطول، أو منارة. في المهبط الثاني، في منتصف الطريق صعوداً إلى المدخنة، ثمة باب غامض، يفضي إلى خزانة خفية؛ وهنا أحتفظ بمشروبات عجيبة، من اختياري، ذات نكهة غامضة، صنعت هكذا بالرعاية المتواصلة والنضج البطيء بسبب حرارة المدخنة اللطيفة، مُقطراً عبر دفة تلك الكتلة البنائية. لا يوجد نبيذ أفضل من ذاك المسافر في رحلات إلى الجزر الهندية؛ ومدختي بحد ذاتها مدار استوائي. إن مقعداً بجانب المدخنة في يوم نوفمبري يعود بالنفع للمريض المعتل؛ كموسم طويل يقضيه المرء في كوبا. غالباً ما أفكر كيف كان العنب لينضج قبالة

١ - استخدم هيرمان ملفيل كلمة Bidy وتعني المرأة الكبيرة المشاكسة والمزعجة، كما يقال لعاملة المنزل العنيدة، وقد ارتأينا استخدام كلمة الشمطاء لعلها تكون قريبة بما يكفي من المعنى.

مدختتي. وكيف لو كانت براعم زهرة إبرة الراعي الخاصة بزوجتي هناك! براعمٌ في ديسيمبر. بيضها، أيضاً - لا تستطيع إبقائه على مقربة من المدخنة، درءاً للتفقيس. آه، يا له من قلب دافئ ذلك الذي تملكه مدختتي.

كم مرة واجهتني زوجتي بخصوص صالة إستقبالها الكبيرة المنتظرة، والتي كان من المفترض أن تشق طريقها بسلسلة عبر المدخنة، من إحدى نهايات المنزل إلى الأخرى، وتدهش كل الضيوف باتساعها السخي. "لكن، يا زوجتي" قلت أنا، "المدخنة - فكري بالمدخنة: إذا هُدم الأساس، فما الذي سيدعم البنية العلوية؟" "أوه، ستكون هذه مهمة الطابق الثاني". الحقيقية هي، أن النساء، إلى جانب عدم معرفتهن أي شيء عن حقائق العمارة، ما تزال زوجتي، مع ذلك، تتحدث عن تطبيق إدخالها وتقسيماتها. لقد قضت الكثير من الليالي الطويلة تضع خططها؛ متخيلة بناء صالتها المتبجح بها عبر المدخنة، كما لو أن جلالتها كانت محض رمح من قمة نبات الحميض. على الأقل، قمت بتذكيرها بلطف أنه بغض النظر عن تقليلها لشأنها، فقد كانت المدخنة حقيقية - واقعاً، حقيقة جوهرية، وسوف يؤخذ هذا بالحسبان بشكل جيد، في كل مخططاتها، لكن هذا لم يكن ذا نفع كبير.

أما هنا، فأتوق باحترام أن تأذن لي هي، أن أقول بضع كلمات في حق زوجتي المقدام هذه. مع أنها تبلغ من العمر نفس سنوات عمري تقريباً، إلا أنها شابة في الروح مثل مهرتي الصغيرة الصهباء، تريجر^(١)، التي أسقطتني من على صهوتها في الخريف الماضي. والأمر الإستثنائي، أنه رغم انحدارها من أسرة تعاني من آلام المفاصل، إلا أنها منتصبة كصنوبرة، لم يسبق لها أن عانت من أي آلام؛ مقارنة بحالي مع عرق النساء، الذي أكون أحياناً مشلولاً بسببه كأبي شجرة تفاح عجوز. أما هي فلم تعانِ أكثر من ألم أسنان. أما بالنسبة إلى سمعها - هَبني أن دلفت إلى المنزل بجزمتي المغربتين، حتى تصبح بعيداً فوق في العلية. وأما بصرها - فالشمطاء - خادمة المنزل، تخبر خادمت أناس آخرين، أن سيدتها تستطيع رصد بقعة على المنضدة مباشرة من خلال طبق قصدير، موضوع بشكل متعمد لإخفائها. إن ملكاتها متيقظة كأطرافها وحواسها. لا خطر من أن تموت حرمي سُباتاً. ففي أطول ليلة في السنة عرفتها مضطجعة في تيقظ، تخطط لحملاتها ليوم غد. إنها مُستعرضة بشكل تلقائي.

إن الحكمة "أياً ما وُجد، فهو صواب"، ليست لها. إن حكمتها هي "أياً ما وُجد، فهو خطأ"؛ وما زاد وجوده، وجب تغييره؛ وما استمر

١ - Trigger: تريجر، اسمها يعني الزناد الذي يضغط عليه بالإصبع لإطلاق النار.

وجوده كثيراً، وجب تغييره فوراً. حكمة مرعبة لزوجة رجل عجوز حالم وناعس مثلي، أمر على أيام الأسبوع كأيام للاسترخاء، ومدفوعاً بذعرٍ سبتي^(١) من العمل الدؤوب. في أيام الأسبوع، انحرف عن طريقي مسافة ربع ميل، لأتجنب مرأى أي امرئ يعمل.

قد يكون صحيحاً، أن توافق الأزواج مع بعضهم صنعة سماوية، لكن زوجتي ما كانت لتكون إلا زوجة لبيتر العظيم^(٢) أو بيتر الزمار^(٣). كم كانت لتنظم تلك الإمبراطورية المتناثرة في نسق واحد، كما تفعل حين تلتقط المتواري من مخلل الفلفل للآخرين وهي مُضناة بلا كلل.

لكن أروع شيء هو، أن زوجتي لا تفكر في نهايتها قط. شكوكيتها الفتية، كنظرية بسيطة، تظل أكثر بساطة من حقيقة الموت، حتى أنها بالكاد تبدو مسيحية مع تقدمها في السن، كما تعلم أنه يجب عليها أن

١ - نسبة إلى يوم السبت وهو يوم عطلة.

٢ - Peter the Great: بطرس الأكبر أو بيتر العظيم وهو قيصر روسيا الخامس؛ كان رجل المتناقضات، فكان عنيفاً قاسياً عديم الصبر انتقامياً ولكنه كان أيضاً شجاعاً بعيد النظر، ذكياً وحساساً.

٣ - Peter the Piper: بيتر الزمار، هو لقب صائد الفئران من القصة الشعبية؛ حيث استخدمه سكان مدينة هاملن الألمانية ليخلصهم من الفئران بمزمارة السحري، وحين رفض أهل القرية دفع المال له استخدم قوى المزمارة السحري وأخذ أطفالهم بعيداً لينتقم منهم.

تكون. يبدو أن زوجتي تظن أن عليها أن ترتقي، وتكون معيماً لا ينضب للأبد. هي لا تؤمن بالعمر المتقدم، ولا بذلك الوعد الغريب في السهل المأمري^(١)، زوجتي العجوز، عكس زوجة إبراهيم العجوز، ما كانت لتضحك بتهكم في داخلها.

كيف لي أن أطلق الأحكام، أنا الذي أجلس تحت ظل مدختي المريح، مدخناً غليوني المريح، برماد لا أمانع وجوده عند أقدامي، رماد لا أمانع وجوده إطلاقاً إلا في فمي؛ ومن أنا من ثم حتى أكون في حالة من عدم الممانعة. مع ذلك، حقاً، بطريقة رمادية بها فيه الكفاية، أن آتي على ذكر الإرهاق النهائي لأكثر الحيوانات اشتعالاً؛ كيف لي أن أطلق أحكاماً على هذه الحيوية التي لا مبرر لها في زوجتي التي تأتي، أحياناً، وهذا صحيح، بخلق وهدوء، ولكن غالباً بشجار واضطراب.

إن كان هذا الاعتقاد صحيحاً، أن ثمة في عقود الزواج قوة جذب، فبأي قوة نكبة يجب أن أكون مدفوعاً نحو زوجتي! إن كانت هي لا تطيق حُرقة الحاضر والماضي، وككأس من جعة الزنجبيل، تطفو هي ومكائدها؛ وبقوة مشابهة لها وهي تضع قدمها أرضاً، تضع محفوظاتها

١ - plain of Mamre: سهل مامر أو رامة الخليل وتقع على بعد ٣ كم شمال مدينة الخليل في فلسطين، وهو المكان الذي يروى أن النبي إبراهيم أقام فيه أكثر من مرة، وفيه بشرت الملائكة زوجته سارة بولدها إسحاق.

ومخللاتها، وتعيش معها في مستقبل متواصل؛ أو باكتمال تام من توقعات دقيقة عن الوقت والمكان، في توقعها المستمر للصحف، ونهمها للرسائل. تطوي السنون السالفة، دون أخذ أي اعتبار للغد، لا تبحث إلا عن لا الجديد من أي شخص أو أي ربع من أي شيء، إنني لا أملك خدعة واحدة أو توقعاً على وجه الأرض، يحميني من المقاومة غير المتكافئة من تعديها غير المبرر.

إن لي نفساً قديمة، إنني أميل لقديمة الأشياء؛ ولهذا السبب أساساً أحب المونتاج القديم، والجنة المزمّنة، والنبذ المعتق؛ وأتحاشى اليافعين من الناس، واللفائف الساخنة، والكتب الجديدة، والبطاطا المبكرة، وإني متيم جداً بكرسيّ ذي الأقدام الشبيهة بالمخالب، ومعقوف الأقدام العجوز ديكون وايت^(١)، جاري، الذي مازالت تجمعني به جيرة قديمة، كرمة عنبي الملتوية، التي تستند بمرفقها على عتبة نافذتي في ليال الصيف، بينما أنا، من بين الأبواب، أستند على مرفقي لألاقي مرفقها؛ وفوق كل هذا، فوق هذا كله، أنا متيم بمدختي القديمة عالية التغطية. ولكن هي، مدفوعة بحبها للأحداث، لا تأخذ بشيء إلا

١ - Deacon White: وليم ديكون وايت (١٨٤٧ - ١٩٣٩) كان أشهر لاعبي البيسبول في أول عقدين ظهرت فيها هذه اللعبة بشكل احترافي، عُرف بسرعته الفائقة نتيجة شكل قدميه المعقوفتين للداخل.

لينابيع أشجار الدردار الفتية؛ رغم عدم وجود أي أمل بإمتداد أي ظلال منها، إلا على أنقاض شواهد قبر ابنة حفيدتها. ولن ترتدي قبعة أبداً، لكنها تصنع من شعرها الرمادي ضفائر؛ وتأخذ بمجلة السيدات للأزياء؛ وتشتري دائماً روزنامة قبل شهر من السنة الجديدة؛ وتنهض في الفجر؛ وللشمس الأدفأ تدير كتفاً بارداً؛ وتواصل الدراسة في ساعات غريبة لمقررها الحديد في التاريخ، ولغتها الفرنسية، وموسيقاها، وتحب الصحبة الشابة؛ وتبدي استعدادها لامتطاء المهور الصغيرة؛ وتضع البراعم الفتية في الحقل، ولديها احتقار لكرمة عنبى القديمة ذات المرفق، وجاري العجوز معقوف الأرجل، وكرسيّ ذي الأقدام الشبيهة بالمخالب، وفوق كل شيء، فوق فوق كل شيء، فإنها مستعدة لتضطهد بسرور، يصل إلى الموت، مدختي القديمة عالية التغطية. وإني أفكر ألف مرة، بأي سحر ضال، يمكن لامرأة عجوز في خريف عمرها أن تمتلك مثل هذه الروح الربيعية؟ حين أعترض على حكم الأزمان، تلتف جانباً عني وتبادر بالقول "أوه، إياك والتذمر، أيها الرجل العجوز (إنها دائماً تدعوني بالرجل العجوز)، إنها أنا، إن أناي الشابة، هي التي تبقيك بعيداً عن الخمول". حسناً، أجزم بأن الأمر هكذا، نعم، في النهاية، إن هذه الأشياء لحسنة الترتيب. إن زوجتي، كواحدة من علاقاتها الضعيفة، تمتلك روحاً طيبة، كما أنها حسنة المعشر، إنها ملح الأرض، وليست بأقل من أن تكون الملح في

بحري، وفي ظروف أخرى كانت فيها غير مؤذية. هي أيضاً رياحها الموسمية، التي تذروها كعاصفة قوية، في الاتجاه الوحيد بثبات صوب مدختي.

هي ليست بغافلة عن طاقاتها المتفوقة، زوجتي جعلتني مراراً أفترض أخذها على نفسها كل مسؤوليات علاقتي. إنها راغبة بأن أعترف أن علي، منزلياً، أن أتنازل؛ وأنخلي أكثر عن تلك السلطة، مثل المبجل كارلوس الخامس^(١)، وأن علي أن انسحب إلى أحد الأديرة، لكن بالفعل، إن المدخنة مستثناة، لدي بعض الصلاحية لأفرضها. لكن أمام تطبيق زوجتي المبتكر لمبدأ أن ثمة أشياء معينة تعود بالقانون للسلطة النسوية، أجد نفسي، بإذعائي السهل، قد تمت تعريتي بدرجاتٍ دون مرعاة، من صلاحية ذكورية فأخرى. لي حلم أطوف فيه حول حقولي، بشيء من الكسل، لا هم عندي، "ما من نفع منه، لير المتسكع العجوز"^(٢). وحدها شذرات من الوحي الفجائي تذكرني بمن في

١ - venerable Charles V : كارلوس الخامس، حكم إمبراطورية مترامية الأطراف، فقيل إن الشمس لا تغيب عنها. وفي أواخر حياته، تنازل عن العرش موزعاً ملكه بين ابنه فيليب الإسباني وأخيه فرديناند، وانسحب للعيش في أحد الأديرة في عام ١٥٥٧.

٢ - old Lear : مسرحية تراجيدية كتبها شكسبير بين عامي ١٦٠٣ و١٦٠٦، وضعها النقاد على قمة ما كتب شكسبير باعتبارها تنتمي إلى العصر الحديث أو تحمل بذور الحدائثة.

إثري؛ كالسنة قبل الماضية، يوم رؤيتي في إحدى زوايا المنزل ودائع طازجة من الألواح والأخشاب الغريبة. إن غرابة الحادثة ولدت فيّ على الفور تأملاً خطيراً. "زوجتي" قلت أنا، "لمن هذه الألواح وتلك الأخشاب التي أرى قرب الحقل هناك؟ هل تعلمين أي شيء بشأنها، يا زوجتي؟ من وضعها هناك؟ أنت تعلمين أنني لا أحب أن يستخدم الجيران أرضي بهذه الطريقة، يجب عليهم أن يطلبوا الإذن أولاً."

طالعتني بابتسامة مُشفقة.

"لم، أيها الرجل العجوز، ألا تعلم بأنني أبني إسطبلاً جديداً؟ أما علمت هذا، أيها الرجل العجوز؟"

هذه هي المرأة العجوز المسكينة التي كانت تتهمني بممارسة الاستبداد عليها.

عودة الآن إلى المدخنة. بعد غدويّ مؤكداً من لا جدوى صالتها المقترحة، مادامت العقبة باقية، كانت زوجتي منهمكة في مشروع إصلاحها ما لبعض الوقت. لكنني لم أستطع أبداً أن أستوعبه تماماً. أبعد ما يمكنني التكهن به، هو أنه ينطوي، على ما يبدو، على إدخال الفكرة العامة بنوع من المداخل المقنطرة غير المنتظمة، أو الأنفاق المكووعة، التي سوف تحترق المدخنة عند نقطة مناسبة ما تحت السلام، متجنبة بحذر المحتوى الخطير في المواعد، وخصوصاً أنها تتوجه متفادية

الأنبوب الداخلي الكبير، إنها تقود المسافر المغامر من الباب الأمامي طوال الطريق دخولاً إلى غرفة الطعام في الخلفية البعيدة عن المسكن. إن خطتها تلك بلا شك، كانت ضربة عبقرية جريئة، وكذلك كان شأن نيرون عندما خطط لقناته الكبيرة من خلال مضيق كورنثوس^(١). ولا أنا آخذ عليها بعهدٍ، أن يتم إنجاز مشروعها، لاحقاً، بالاستعانة بالأضواء المعلقة بمسافات محددة في نفق، قد ينجح بلزوني^(٢) أو غيره في العصور المستقبلية في اختراق المبنى، والانبثاق في غرفة الطعام فعلاً، وما أن يكون هناك، سيكون من قلة الضيافة تجنب إعطاء مسافرٍ من هذا النوع وجبة خاصة بالجنود.

إلا أن زوجتي المهتاجة لم تقيد اعتراضاتها، ولا هي حبست تعديلاتها المقترحة على الطابق الأول في النهاية. كان طموحها ذا ترتيب تصاعدي. لقد صعدت بمخططاتها إلى الطابق الثاني، وهكذا دواليك إلى العلية. ولربما كانت هناك بعض الأسباب الصغيرة وراء سخطها

١ - Nero: نيرون أو نيرو هو خامس وآخر إمبراطور روماني، راودته فكرة إعادة إعمار روما فأشعل فيها نيراناً استمرت لأسبوع بينما كان هو منتشياً يتسلى بالمنظر، أما مضيق كورنثوس فهو الجسر البري الذي يربط شبه جزيرة البيلوبونيز ببقية أراضي اليونان.

٢ - Belzoni: جوفاني باتيستا بلزوني، مستكشف ومغامر إيطالي وصل إلى مصر في عام ١٨١٥ وتمكن من نقل تمثال رمسيس الثاني وشحنة إلى إنجلترا، كما كان أول من نقب في الهرم الثاني في الجيزة، وقام بحفريات في معبد الكرنك.

على بقاء الأشياء على حالها. الحقيقة هي أنه لم يكن ثمة ممر معتاد أعلى أو أسفل السلم، إلا إذا استثنينا مجدداً رواق الاوركسترا الصغير سالف الذكر ذاك. وكل هذا كان بسبب المدخنة، التي يبدو أن حرمي الماكرا مرغمة على رؤيتها كمُضطهدة المنزل. على جوانبها الأربعة كلها، كل الحجرات مجانبة للمدخنة تقريباً للاستفادة من أحد المواعد. ما كانت المدخنة لتذهب إليهم؛ هم عليهم أن يكونوا بحاجة للذهاب إليها. والعاقبة كانت، أن كل غرفة تقريباً، مثل نظام فلسفي، كانت نفسها مدخلاً، أو ممر عبور إلى الغرف الأخرى، ونظام الغرف هو - جناح كامل من المداخل، في الواقع. بمروركم عبر المنزل، يكون الأمر أشبه بذهابكم نحو مكان ما إلى ما لا نهاية، فلا تصلون إلى أي مكان أبداً. هو أشبه بأن يضيّع المرء نفسه في الغابات؛ تدورن وتدورن وتمرون قرب المدخنة. وإذا ما وصلتكم أخيراً، فستصلون إلى المكان الذي بدأت منهُ، وهكذا تبدؤون من جديد، ومن جديد، لا تصلون إلى مكان. فعلاً - مع أنني لا أقولها بطريقة المنتقد على الإطلاق - لم يكن ثمة مسكن متاهي مماثل له. إن ضيوفي يقون عندي بضعة أسابيع، وبين الحين والآخر، تتجدد دهشتهم بشقة لم يسبق لهم رؤيتها من قبل.

الطبيعة المحيرة للمسكن، والناجحة من وجود المدخنة، يمكن ملاحظتها بشكل خاص في غرفة الطعام، التي لا تقل أبوابها عن

التسعة، وهي تُفتح في كل الاتجاهات، وتُفضي لمختلف أنواع الأماكن. إن الغريب الذي يدخل غرفة الطعام هذه للمرة الأولى، وتلقائياً لا يلقي اهتماماً مميزاً لمعرفة من أي باب دخل، قبيل نهوضه للمغادرة، سوف يرتكب أغرب الأخطاء. على سبيل المثال، عند فتحه أول باب في تناول اليد. سيجد نفسه يجلس النظر إلى أعلى السلام من الممر الخلفي. فيغلق ذلك، وسيواصل إلى آخر، ويصاب بالذعر من القبو الذي يتشاءب عند قدميه. فيجرب ثالثاً، فيفاجئ الخادمة في عملها. في النهاية، لا مزيد من الاعتماد على جهوده الغير مجددة، فيلمس العثور على دليل موثوق في أي شخص عابر، أو كأني متخبط فضولي قد يخرج بنجاح في أي وقت. كان ذلك شأن سيد شاب أنيق، عظيم الروعة، رأى في ابنتي آنا بعيونه الحصيفة خدمة مميزة. نادى على الأنسة الشابة ذات ليلة، ووجدها وحيدة في غرفة الطعام منكبدة على عملها في التطريز. كان قد بقي لوقت متأخر؛ وبعد فيض من الحديث الرقيق، طوال تلك الفترة كان ما يزال فيها ممسكاً بقبعته وعصاه، أدى تحية الـ "بروفوفس آديوس"^(١) خاصته، وبتكرارات تتسم بالكياسة كان ينحني هامئاً بالرحيل، كفرد من حاشية ملكية، وهو يقوم بذلك، كان يفتح باباً بعشوائية، وإحدى يديه موضوعة خلفه، وتمكن من حشر

١ - profuse adieu: بمعنى وافر وداعي باللاتينية.

نفسه بنجاح داخل غرفة مؤن مظلمة، وهناك أغلق على نفسه بعناية، متسائلاً عن سبب عدم وجود إنارة في المدخل. بعد تناهي عدة أصوات غريبة وكقط محشور بين جرار من الفخار، عاود الظهور من نفس الباب، وكان يبدو مكتئباً بشكل استثنائي، ومحرجاً بشدة، طلب من ابنتي أن تحدد أي الأبواب التسعة سوف يعثر منه على المخرج. حين أخبرتني أننا المشاكسة بالقصة، قالت إنه كان من المفاجئ أنه بدا غير متأثر. وفي الحقيقة فإن تصرف السيد الشاب هذا كان سبباً لمعاودته الظهور. ولقد كان أكثر إخلاصاً من السابق، ليكون حريصاً؛ على ألا يحشر صغاره البيض في درج مفتوح من سكر هافانا^(١)، تحت هذا الانطباع، ربما، يكون هذا ما يسمونه بالصحبة الحلوة^(٢)، قد يكون مسلكه ربما واقعاً في ذلك الاتجاه.

نتيجة أخرى غير ملائمة بسبب المدخنة، هي إرباك الضيف حتى يحصل على حجرتة، فثمة العديد من الأبواب الغريبة التي تحول بينه وبينها. سيكون من الغريب توجيهه بأعمدة الأصابع^(٣)؛ بقدر غرابة

١ - المقصود بالأطفال البيض هو القفازات البيضاء التي كان الشاب يرتديها، وحين دخل غرفة المؤن المظلمة حشر يده في جرة من السكر.

٢ - a sweet fellow

٣ - fingerpost: عمود في الطريق يحمل أسماء الأماكن المعروفة كل حسب اتجاهها، وتسمى كل لافتة باسم تحمله وتدل على اتجاه معين بالإصبع.

طرقه كل الأبواب في طريقه، كالمملك في تمبل بار^(١) حين يحل ضيفاً على مدينة لندن.

الآن، من بين كل هذه الأمور، وغيرها الكثير، عائلتي تتدمر باستمرار. على الأقل جاءت زوجتي بأسبابها الكاسحة - لإزالة مدختي كلياً.

"ماذا" قلت أنا، "إزالة المدخنة؟ إن اقتلاع أساس أي شيء، يا زوجتي، لمسألة خطيرة. كالأعمدة الفقرية من الظهر، والمدخن من المنزل، إن الأمر لا يؤخذ به مثل الأنابيب المغطاة بالرصاص في الأرض. إلى جانب"، أضفت أنا، "أن هذه المدخنة هي المعمر الأكبر الوحيد من هذا المسكن. إن لم يزعجها المبتكرون، في الدهور المستقبلية، سينهار هذا المنزل برمته دونها، هذه المدخنة سوف تبقى - نُصباً تذكرياً لبونكر هيل^(٢). كلا، كلا، يا زوجتي، لا أستطيع إلغاء أساسي".

هذا ما قلته وقتئذ. ولكن من ذا الذي يثق بنفسه، لاسيما إن كان رجلاً عجوزاً، زوجته وبناته دوماً عالقات على كوعه وأذنه؟ بمرور

١ - Temple Bar, London: أحد مداخل مدينة لندن من الجانب الغربي وهي مرتبطة باحتفال تاريخي قديم يتوقف فيه الملك أمام بوابة تمبل بار ويطلب الإذن للدخول فيأذن له العمدة بذلك ويقدم له سيف الدولة دلالة على الولاء.

٢ - معركة بونكر هيل في السابع عشر من يونيو ١٧٧٥.

الوقت، تم إقناعي للتفكير بالأمر بشكل أفضل قليلاً؛ باختصار، بأن آخذ الأمر بأولوية الاعتبار. في النهاية آل الأمر أن يمر ببناء الخبير - نوع تقريبي من المهندسين المعماريين - السيد سكراب، كان قد استدعي لاجتماع. عرفته برسمية إلى مدختي. بعد أن عرفته بي مقدمة سابقة من زوجتي. لم يكن سوى مُستخدم صغير عند تلك المرأة، لإعداد الخطط وتقدير بعض عملياتها الحفرية الواسعة. بعد كثير من الجلبة، أخذت من زوجتي عهداً بأن تدعنا نقوم بعملية المسح بلا مضايقة، بدأت بتوجيه السيد سكراب نزولاً إلى جذر المشكلة، في القبو. ونزلت ومعني قنديل في يدي؛ مع أن الوقت كان ظهراً في أعلى الدرج، إلا أنه كان ليلاً في الأسفل.

وكما لو كنا داخل الأهرامات؛ كانت إحدى يدي تمسك بقنديل فوق الرأس، والأخرى تشير هناك، نحو الغياهب، بدت كتلة المدخنة العجوز، كدليلٍ عربي، تبيّن الضريح البيتعنكبوتي للاله العظيم أبيس^(١).

"إن هذا هو الهيكل الأروع، يا سيدي"، قال البناء المحترف، بعد أن تأملها مطولاً بصمت، "الهيكل الأروع، يا سيدي".

١ - Apis: لقب العجول التي كانت تدفن في مقابر سرايوم بسقارة، وقد تم العثور على تماثيل برونزية له ترجع للحكم في مصر القديمة. وكان العجل الذي يتم اختياره بلون أبيض به بقع سوداء في الجبهة والرقبة والظهر.

"أجل" قلت أنا برضا، "الجميع يقول هذا".

"لكن بالاتساع الذي تبدو عليه فوق السقف، ما كنت لأخمن بنية الأساس، سيدي" قال وهو يعاينها بانتقاد.

ثم أخرج مسطرتَه، وقاسها.

"اثنا عشر قدماً مربعاً؛ مائة وأربعة وأربعون قدماً! سيدي يبدو أن هذا البيت ببساطة، بني لتتكيف فيه مدختك".

"أجل، مدختي وأنا. الآن، قل لي بصراحة"، أضفت أنا "هل كنت لتزيل مثل هذه المدخنة المشهورة؟".

"ما كنت لأحظى بها في منزلٍ لي كهدية، سيدي" كان الرد.
"إنها قضية خاسرة، سيدي. هل تعلم، سيدي، أنك باحتفاظك بهذه المدخنة، تخسر، ليس المائة وأربعة وأربعين قدماً من المساحة الأرضية الجيدة فقط، ولكنك أيضاً تخسر بالمثل فائدة كبيرة لأساس معتبر؟".

"كيف؟".

"أنظر، سيدي!" قال هو، آخذاً شيئاً من الطباشور الأحمر من جيبه، وبدأ بالرسم على حائط مغسول بالبياض، "ثمانية في عشرين مرة هو كذا وكذا؛ ثم تسع وثلاثون في اثنين وأربعين مرة هو كذا وكذا -

أليس كذلك؟ حسناً، أضف هذه معاً، واطرح هذا هنا، فيكون الناتج كذا وكذا"، كان ما يزال مستمراً بالطبشرة.

لأختصر، بعد حساب غير بسيط، أبلغني السيد سكراب أن مدختي محتواه على...، إنه ليخجلني أن أقول كم ألفاً ونيف من الطوب النفيس.

"هذا يكفي" قلت أنا متملماً. "صل الآن" دعنا نلقي نظرة في الأعلى".

في المساحة العليا طُفنا مرتين إضافيتين على الطابقين الأول والثاني. بعد أن تم هذا، وقفنا سوية على قدم السلم عند المدخل الأمامي، كانت يدي على المقبض، وقبعة السيد سكراب في يده.

"حسناً، سيدي" قال هو، متحسناً طريقه، متمسكاً قبعته ليعين نفسه، "حسناً، سيدي، أظن أن من الممكن عمله".

"ماذا، بالله عليك، سيد سكراب؛ ما الذي من الممكن عمله؟"

"مدختك، سيدي؛ يمكنك إبقائها دون التسرع بإزالتها، أظن".

1 - pray now: طريقة قوية لقول "أرجوك".

"سأفكر في الأمر، أيضاً، سيد سكرياب". قلت أنا، مديراً
المقبض منحنيماً باتجاه الفضاء المفتوح دوننا، "سأفكر في الأمر،
سيدي؛ الأمر يتطلب تفكيراً؛ عظيم امتناني لك؛ أسعدت صباحاً،
سيد سكرياب".

"قُضي الأمر، إذًا"، صاحت زوجتي ببهجة كبيرة، منبثقة من
أقرب غرفة.

"متى سوف يبدأون؟" طالبت ابنتي جوليا بجواب.

"يوم غد؟" سألت آنا.

"صبراً، صبراً، عزيزاتي"، قلت أنا، "مثل هذه المدخنة الكبيرة لا
تُزال في دقيقة".

في الصباح التالي بدء الأمر مجدداً.

"أنت تتذكر المدخنة"، قالت زوجتي. "زوجتي" قلت أنا، "هي
لا تغادر عقلي، ولن تغادر منزلي".

"لكن متى سيبدأ السيد سكرياب بهدمها؟" سألت آنا.

"ليس اليوم، آنا،" قلت أنا.

"متى، إذًا؟" بذعر طالبت جوليا بإجابة.

الآن، إن كانت مدختي هذه، تشبه في الحجم، برج حراسة، ليخدعوني بشأنها، فستكون زوجتي وبناتي أجراساً، دائماً الرنين معاً، أو تستكمل نغمات بعضها عند كل وقفة، وزوجتي هي لسان الجرس^(١) يبنهن. إنه رنين في غاية العذوبة، والدويّ والتناغم، أنا أعترف؛ لكن حينها، فإن أكثر الأجراس فضية يمكنه أن يصدر، أحياناً، رنيناً مخيفاً، مثل قدرته على أن يصدر صوتاً طروباً. وتبعاً لحساسية الموضوع المطروح، بدأ الأمر الآن يستدرِك فيّ نكوصاً غريباً في المعارضة. بدأت الزوجة والبنات بعزف لحن جنائزي ناعم السوداوية على مسامعي.

بمرور الوقت أصاب زوجتي، حماس كبير، لتعلن لي، مُشيرة بإصبع، أنه طالما بقيت هذه المدخنة، فستراها شاهداً على ما سمته بعهدي المنقوض. ولكنها حين استنتجت أن هذا لم يفلح، في اليوم التالي، جعلتني أفهم أن على إحداها هي أو المدخنة ترك هذا المنزل.

مدرَكاً بأن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، تفلسفتنا أنا وأنبوب غليون في الأمر لفترة، وخلصنا أخيراً في ما بيننا، رغم ضعف ميل قلوبنا مع الخطة، ولكن طلباً للسلام، أنني حين خريشت رسالة للسيد سكرياب، كنت وقتئذٍ أحرر شهادة وفاة المدخنة.

١ - key-clapper: لسان الجرس، وهي القطعة المعدنية المتأرجحة بحرية داخل الجرس، واصطدامها بجدران الجرس المجوفة يصنع الرنين.

على اعتبار أنني، ومدختي، وأنبوب غليون، كنا معاً لوقت طويل جداً، ثلاثة أخلاء عظماء، فإن السهولة التي وافق بها أنبوب غليون على مشروع بهذه الكارثية ضد أفضل من في ثلاثتنا، أو بالأحرى، الطريقة التي تأمرنا بها أنا وأنبوب غليون، في السر، كما كان، ضد رفيقتنا الغافلة العجوز - قد تبدو غريبة، إن لم تكن باعثة لانعكاسات حزينه على كلينا. ولكن، بالفعل، نحن، أبناء الطين، أنا وغليون، لسنا أفضل بمثقال ذرة من البقية. كان من المستبعد عنا، بالفعل، أن نتطوع لخيانة صديقتنا. كما أننا من طبيعة مسالمة، ولكن هذا الحب للسلم هو ما جعلنا نغدر بصديقتنا المشتركة، وسرعان ما تطلبت قضيتها إثباتاً قوياً. لكن، يسرني أن أضيف، أن أفكاراً أفضل وأشجع قد تواردت، كما سيأتي الآن بإيجاز.

رد السيد سكراب بحضور شخصي، على رسالتي.

مرة أخرى قمنا بإجراء عملية مسح للمكان، برؤية تقدير مالي بشكل عام هذه المره.

"سأفعلها لقاء خمسمائة دولار"، قال السيد سكراب أخيراً، مجدداً كانت القبعة في اليد.

"حسن جداً، سيد سكراب، سأفكر في الأمر"، أجبت أنا، مجدداً كنت أنحني به نحو الباب.

غير مغتاظ، في المرة الثانية، من هذا الرد غير المتوقع، مجدداً انسحب هو، ومن زوجتي، ومن بناتي مجدداً انبثقت التساؤلات.

الحقيقة هي أنني كنت ما أمكنني عازماً، بعد القرصة الأخيرة، على أنني ومدختي لا يمكن أن نفرق.

"إذاً فسيحصل هولوفورنس^(١) على مبتغاه، غير مبال بقلب من لأجله سيحطم،" قالت زوجتي في الصباح التالي، عند الإفطار، بتلك الطريقة النصف وعظية، نصف جنائزية الخاصة بها، والتي هي أصعب على الاحتمال من أكثر إساءاتها المفعمة بالحياة. هولوفورنس، معها أيضاً هو اسم تدليل لأي استبداد منزلي عنيف. لذا، في أي وقت، أخالف ابتكاراتها الطموحة، تلك التي وضعتني عكس التيار إلى حد كبير، إنني، كما في اللحظة الراهنة، أقف بكل ما أملكه من بعض الصمود في وضعية الدفاع، بالتأكيد هي سوف تنعتني بهولوفورنس، وبنسبة عشرة إلى واحد ستستغل أول فرصة لتقرأ بعلو الصوت، وبتأكيد مكبوت، ذات ليلة، أول فقرة من صحيفة عن عامل بالأجر

١ - Holofemes: هولوفورنس، قائد قوات نبوخذنصر الذي كلفه بالانتقام من "أمة الغرب" التي رفضت تقديم العون له، ورغم تحذيرات الإله آشور له من إيذاء اليهود قام بمحاصرتهم وتعذيبهم حتى قامت أرملة يهودية اسمها جوديث بإغرائه وقطع رأسه بينما كان نائماً.

اليومي، بعد أن كان لسنوات طويلة كاليغولا^(١) لعائلته، ينتهي به الأمر بضرب زوجته المعذبة طويلاً حتى الموت، بباب عُليّة مخلوع من مفاصلة، ومن ثم، يقوم بقذف صغاره الأبرياء من النافذة إلى الخارج، وبعدها ينطلق بانتحارية إلى الداخل نحو الجدار المكسور، المثقب بفواتير الجزار واخباز، ويندفع بتهور ليلاقى حتفه المرعب.

إلا أنها، لبضعة أيام، وهو ما ليس قليلاً لدهشتي، لم يتناهأ إلى مسمعي المزيد من اللوم. هدوء كثيف اجتاح زوجتي، ولكن يا ترى ماذا يكمن تحته، كما في البحر، لم يكن هناك علم بأي حركة محتملة قد تدور هناك. كانت تذهب إلى الخارج بتذبذب، وفي اتجاه ظننت أنه لم يكن غير مريب، أعني، في اتجاه نيو بيترا، منزل شبيه بالغريفين^(٢) مصنوع من الخشب والجص، بأرقى أساليب فن الزينة، تزيينه أربع مداخن على هيئة تنانين منتصبية وتقذف الدخان من مناخيرها؛ إن البيت الأنيق العصري للسيد سكراب، والذي بناه في سبيل عمل

١ - Caligula: كاليغولا وهو ثالث إمبراطور روماني ويعتبر أشهر طاغية في التاريخ الإنساني معروف بوحشيته وجنونه وسادته، له صلة قرابة من ناحية الأم بالإمبراطور نيرون الذي أحرق روما. اغتيل كاليغولا في السنة الـ ٤١ ميلادية.

٢ - griffin: مخلوق أسطوري برأس وجناحي نسر وجسد أسد، يتم تصويره عادة بأذان مدبية وتأخذ أرجل النسر مكان الأقدام الأمامية.

إعلان دائم، لا يشي بذوقه كمهندس معماري، بقدر ما يبين جموده
كبناء خبير.

في النهاية، وأنا أذخ غليوني ذات صباح، سمعت طرقاتاً على الباب،
وزوجتي بأنفاس هادئة غير معتادة منها أتت إلي برسالة. بما أنه ليس لي
أي مراسلين باستثناء سولومون، الذي على الأقل، أستجيب كلياً
لتصريحاته، سببت لي الرسالة مفاجأة صغيرة، لم تغب عني عند قراءة
التالي: -

نيو بيترا، الأول من أبريل.

سيدي، أثناء تفحصي السابق لمذختكم،
لعلكم لاحظتم أنني قد مررت بمسطرتي عليها
مراراً بطريقة بدت غير ضرورية. ربما، أيضاً، في
الوقت نفسه، كنتم تراقبونني بقليل أو كثير من
الارتباك، والذي، على كل حال، امتنعت عن
إعطاء أي تعبير شفهي عنه.

والآن أشعر أنه من الواجب عليّ إبلاغكم بما لم
يكن في وقتها أكثر من شك مبهم، ومثله ما كان
من الحكمة أن يُتفوه به، والذي الآن، بعد

حسابات لاحقة عدة دون افتراض لأي احتمالية صغيرة، لعله من المهم ألا تظنوا غافلين أكثر عنه.

إنه من واجبي الرسمي أن أحذركم، سيدي، عن وجود سبب معماري للظن بوجود مكان خفيّ في مدختكم ثمة مساحة محفوظة، مغلقة بإحكام، باختصار، غرفة سرية، أو بالأحرى خزانة. منذ متى كانت هناك، يستحيل بالنسبة إلي أن أقول. ما هو المحتوى المخفي، بنفسه، في الظلمة. عدا أن يكون ربما خزانة سرية ما كانت لتبتدع إلا لشيء غريب، سواء كانت لإخفاء كنز، أو أي سبب آخر، من الأفضل أن يترك الأمر لمن هم أكثر مني إلماماً بتاريخ المنزل ليحزروا.

لكن حسبي، بقيامي بهذا الكشف، يا سيدي، أن يرتاح ضميري. أياً تكن الخطوة التي تتخذونها بشأنه، هي بالتأكيد لا تشكل أي أهمية بالنسبة إلي؛ مع أنني، أعتز، أنه مع احترامي لشخص الخزانة، لا يسعني إلا أن أشارك الأمر بفضول طبيعي. موقناً بأنكم ستصلون لرشاد السبيل، في

تحديد إن كانت السكنى في بيت مجوي خزانة سرية
من شيم المسيحيين، مع فائق احترامى، سوف
أظل، المتواضع لكم أبداً،
هايرم سكرابب.

أول فكرة راودتني حين قرأت هذه الرسالة، لم تكن حيال الغموض
المزعوم. في البدء، إذ إنها ألمحت إلى شيء لم ينتبني على الإطلاق من
مراقبة البناء الخبير خلال مسحه للمكان - لكن حيال قريبي، القبطان
جوليان داكريس، قائد سفينة لوقت طويل وتاجر في التجارة الهندية،
والذي مات عازباً، قبل ثلاثين عاماً، في عمر التسعين اليانغ، وفي هذا
البيت بالذات، الذي بناه هو، وكان يفترض به أن يتقاعد في الريف مع
ثروة كبيرة.

لكن المفاجأة الكبرى كانت أنه، بعد صرف مبلغ هائل في بناء هذا
القصر لنفسه، استقر بوقار، كتوم وغير مكلف لكبار السن، مما جعل
الجيران يظنون أن هذا لصالح ورثته: لكن ها! إبان فتح الوصية، وجد
أن أملاكه تنحصر في هذا المنزل والأراضي، وبضع عشرة آلاف من
الأسهم؛ ولكن وجد أن هذا المكان مثقل بالرهن، فبالتالي تم بيعه.
قضت الإشاعة يومها، تاركة العشب يزحف على قبر القبطان، حيث

كان ما يزال ينام بخصوصية وبلا مضايقات كما لو أنه نائم على وسائل المحيط الهندي، بدلاً من أن تنزلق عليه الخضرة الداخلية. مع ذلك، أذكر منذ زمن طويل، تناهي تحليلات غريبة لمسامعي من سكان الريف بشأن الغموض الذي يكتنف وصيته، وما ينعكس عليها؛ وهذا، أيضاً، في الضمير، كمحفظة. لكن الناس عجزوا عن فهم التقرير (الذي قاموا بعمله)، أن القبطان جوليان داكريس كان، في يومها، قرصاناً بورنيوياً^(١)، بالطبع لم تكن ذات مصداقية في مفاهيمهم الضمنية. غريب ما تريده نزوات الشائعات الجاحمة، هي مثل الفطر، تتشكل حول أي غريب أطوار دخيل، يستقر وسط سكان ريفيين، محافظاً على هدوءه لنفسه. ومع بعض المسألة سوف يبدو سبباً رئيسياً للأذى. لكن ما قادي بشكل خاص لاستكشاف هذه الشائعات، كان بالتحديد تلك الإشارة إلى كنز خفي. كان ما حدث، أن ذلك الغريب (و هو نفسه الذي دمر السقف والمدخنة) الذي دُمرت الملكية العقارية على يديه بعد موت قريب، كان من تلك الشخصيات، كان هذا أبسط دليل على تلك الأقاويل. كان قد سارع إلى فحصها، وإلى تمزيق الجدران وتفتيشها.

١ - Borneo: بورنيو: جزيرة كبيرة في أرخبيل الملايو، تتكون من كاليانتان (تابعة لإندونيسيا)، صباح وساراواك (تابعة لماليزيا) وبروناي.

مع هذا، إن رسالة السيد سكراب، تلح علي بشدة لاستعادة ذكرى قريبي، مما يتوافق بتلقائية مع ما كان غامضاً، أو على الأقل غير مفسر، حياله؛ تحدث في عقلي ومضات مبهمة لسبائك معدنية مع التفاعلات غريبة للجهاجم. لكن أول فكرة هادئة سرعان ما طردت مثل هذه الأوهام، وبابتسامة هادئة، التفت صوب زوجتي، التي كانت في تلك الأثناء، جالسة في الجوار، نافذة الصبر بما يكفي، أجرؤ على القول، لتعرف من ذا الذي وضع في حسابانه أن يكتب لي رسالة.

"حسناً، أيها الرجل العجوز،" قالت هي، "مَن، وعمّ هي؟".

"إقرأها، يا زوجتي" قلت، وأنا أناولها إياها.

قرأتها زوجتي، ومن ثم - يا له من انفجار! سوف لن أتظاهر بوصف مشاعرها، أو تكرار تعابيرها. يكفي أن ابنتي نوديتنا سريعاً لمشاركة الحماس. على الرغم من أنهم لم يحملن أبداً بوحى شخص مثل السيد سكراب؛ ولكن مع أول اقتراح رأين غريزياً أشد الاحتمالات فيها. بتأييد، استحضرن أولاً قريبي، وثانياً، مدختني؛ زاعمات بأن السر الأساسي يتضمن السابق، والبناء الذي يساويه يتضمن اللاحق، رغم أن كلا الحقيقتين المعلومتين، كانتا على حد سواء منافيتين عقلياً لأي افتراض آخر غير الخزانة السرية.

ولكن طوال هذا الوقت كنت أفكر في نفسي بهدوء: هل يمكن أن يكون قد خفي عني أن سذاجتي في هذه اللحظة ستصب في مصلحة خطة ما لديهن؟ كيف يمكن الوصول إلى الخزانة السرية، أو كيف السبيل للوصول إلى أي يقين عنها على الإطلاق، دون القيام بمثل هذا العمل العنيف بمدختي حتى تطبق تشكيلتها من أعمال التخريب العبثية؟ حقيقة أن زوجتي تمت التخلص من المدخنة، لم يحتاج الأمر إنعكاساً ليظهر؛ وأن السيد سكراب، بكل عدم اكتراثه المدعى، لم يكن معارضاً ليحصل على خمسمائة دولار لقاء العملية. يبدو جلياً بشكل متكافئ، أن زوجتي قد قامت، في السر، بالتآمر مع السيد سكراب، وأنا في الوقت الحاضر أحجم عن التأكيد. ولكن حين أولي اعتباراً لعدائيتها ضد مدختي، والثبات الذي ستعتمد عليه في نهاية المطاف لتنفيذ مخططاتها، بسكينة أو بحيلة^(١) تقدر عليها، لاسيما بعد أن أحبط مخططاتها ذات مرة، لماذا، بالكاد أعلم عند أي خطوة من خطواتها أتفاجأ.

ثمة شيء واحد فقط كنت قد عزمت عليه، هو أنني ومدختي لن نتزحزح.

by hook or crook - ١

عبثاً كانت كل الاحتجاجات. في الصباح التالي ذهبت إلى الشارع، حيث لاحظت هناك علجوماً^(١) عجوزاً شيطاني المظهر، كان لشجاعة استعماله وقع الخدش على سياج ممنوع، كافأه سيده بشكل بديهي، بزخرفة خشبية رباعية المحاور، على شكل طوق ليكون خنّاقة. هذا العلجوم حاصرته وبعثرت عنه أخشن ريشاته. نتفته، وأخذته إلى المنزل، ثم شحذت قلمي، ناقشاً الرسالة التالية:

شيمني سايد،

الثاني من إبريل.

السيد سكرابب:-

سيدي ليكون في معلومكم، أننا نعيد إليكم
شكرنا وثناءنا المشترك، ونلتمس الرجاء لنؤكد
لكم، بأننا باقون، وافر الإخلاص نفسه.

أنا ومدخنتي

بالطبع، من أجل هذه الرسالة تحتم علينا تحمّل بعض التوبيخات
الحادة، ولكنها أوصلت أخيراً لبيان صريح مني أن رسالة للسيد

١ - gander: العلجوم هو ذكر البط.

سكرايب لم تغير في رأيي مثقال ذرة، وزوجتي، سعيًا للتأثير علي قالت، من بين أشياء أخرى قد قيلت، أنها تتذكر جيداً، وجود إجراء قانوني حيال إبقاء الخزانات السرية يشبه جرم الاحتفاظ ببارود البنادق. لكنه لم يؤثر في.

بعد بضعة أيام لاحقة، قامت زوجتي بتبديل مفتاحها.

كان الوقت قرابة منتصف الليل، وكان الجميع في مخادعهم عدانا، كنا جالسين، كل واحد منا على ركن مدخنة؛ هي، وإبرتها في يدها، بلا كلل تحيك جورباً؛ أنا، وأنبوب غليون في فمي، وبكسل أنسج أبحرتي.

كانت إحدى أول ليالي الاسترخاء في الخريف. كانت هناك نار في المدفأة، تحترق بضالة. الهواء دوننا كان ثقيلًا وخاملاً؛ كان الخشب، بنظرة رقيقة، من النوع الذي يطلق عليه مُنْدِيًا.

"ألق نظرة على المدخنة"، بدأت هي؛ "ألا ترى أنه لا بد أن يكون فيها شيئاً ما؟".

"نعم، يا زوجتي. فعلاً ثمة دخان في المدخنة، كالذي في رسالة السيد سكرايب".

"دخان؟ نعم، بالفعل، وفي عيني، أيضاً. كم تدخان بشراهة أيها العجوزان الخبيثان الآثمان! هذه المدخنة الخبيثة العجوز وأنت".

"يا زوجتي،" قلت أنا، "أنا ومدختي نحب أن ندخن معاً، ذلك صحيح، ولكننا لا نحب أن نُشتم".

"حسبك، أيها الرجل العجوز العزيز،" قالت وهي تزداد لطفاً وتغير الموضوع بعض الشيء، "حين تفكر في قريبك العجوز ذاك، أنت تعلم أن ثمة خزانة سرية في هذه المدخنة".

"فتحة رماد سرية، لماذا لا تفهمين الأمر؟ نعم، أجزؤ على أن أقول أن ثمة فتحة رماد سرية في المدخنة؛ إلى أين تذهب كل تلك الأشياء المتساقطة من تلك الفتحة الغريبة البعيدة؟".

"أعلم أين تذهب؛ كنت هناك بعدد المرات التي كان فيها القط هناك تقريباً".

"أي شيطان، يا زوجتي، دفعك للزحف في فتحة الرماد؟ ألا تعلمين أن شيطان القديس دونستن^(١) انبثق من فتحة الرماد؟ ستلقين حتفك في أحد هذه الأيام، وأنت تستكشفين من حولك كما تفعلين، ولكن لنفترض جدلاً وجود خزانة سرية، ثم ماذا؟".

١ - St. Dunstan: القديس دونستن (٩٠٩ - ٩٨٨م) رئيس أساقفة تولى العديد من المناصب قبل اعتباره قديساً، تناولت عظمته عنه العديد من القصص، أشهرها تلك التي تتعلق بمكره الشديد في هزيمة الشيطان.

"ثم ماذا؟ ما الذي يجب أن يوجد في خزانة سرية عدا -".

"عظام يابسة، يا زوجتي،" انفجرت أنا بنفخة، بينما انفجرت المدخنة العجوز الأييسة بمثلها.

"هاك مجدداً! أووه، كم تدفع بالدخان هذه المدخنة القديمة الرديئة"، وهي تمسح عينها بمنديلها. "لا شك عندي أن السبب الذي يجعلها تُدخن هو، أن تلك الخزانة السرية تتداخل مع الأنبوب. أمعن النظر، أيضاً، كيف أن الدعامات هنا تواصل الترسيب؛ وهي هابطة من الباب حتى هذه المدفأة. هذه المدخنة الرهيبة العجوز سوف تسقط على رؤوسنا؛ ومع ذلك أنت تعتمد عليها، أيها الرجل العجوز".

"أجل، يا زوجتي، أنا أعتد عليها؛ نعم بالفعل، إنني أضع كل اعتماد على مدختي. وبالنسبة إلى ترسيباتها، فإنني أحبها. أنا، كذلك، إنني أترسب، كما تعلمين، في مشيتي. أنا ومدختي ترسبنا معاً، وسنواصل الترسيب، أيضاً، حتى، كما لو كنا في سرير هائل من ريش، يستقر بنا المآل بعيداً عن مد النظر. لكن هذا الفرن السري؛ أعني، خزانتك السرية، يا زوجتي؛ أين تفترضين تحديداً مكان وجود هذه الخزانة السرية؟".

"هذا عائد للسيد سكرياب ليقرره".

"ولكن افرضي أنه لا يستطيع التحديد تماماً؛ ثم، ماذا؟".

"إنه لقادر على الإثبات، أنا متأكدة، أنها في مكان ما من هذه المدخنة الفظيعة العجوز".

"وإن لم يستطع إثبات هذا؛ ثم، ماذا؟".

"ثم، ماذا، أيها الرجل العجوز،" بنفس مفخم، "سأخفف من أقوالي عنها".

"موافق، يا زوجتي"، عدت أنا، ضارباً صحن فوهة غليون على الدعامة، "والآن، يوم غد، للمرة الثالثة سوف أرسل في طلب السيد سكراب. زوجتي، إن آلام عرق النسا تتمكن مني؛ كوني طيبة وضعي هذا الغليون على رف المستوقد".

"إن جئت لي بالسلم المتنقل، سأفعل. هذه المدخنة القديمة المرّوعة، إن رفوف هذه المدخنة القديمة المقيتة عالية جداً، لا أستطيع الوصول إليها".

ما من فرصة، مهما بلغت ضآلتها، تجعلها تتوانى عن قذف سخرية ما في هذه المعمه.

هنا، بطريقة تعريفية، من الواجب الذكر، أنه إلى جانب وجود كل المواقد من حولها، كانت المدخنة، بالصدفة المحضة جداً، مشقوقة في كل طابق لخزائن صغيرة وسرايب فضولية خارج الطريق، بشتى

الأنواع والأحجام، مثبتة هنا وهناك، كالشباك المتشعبة من سديانة قديمة. في الطابق الثاني كانت هذه الخزائن أكثر تفاوتاً وعدداً. ومع ذلك بالكاد ستكون كذلك، بما أن نظرية المدخنة كانت، أنها تتضاءل هرمياً كلما ارتفعت. إن مختصر مربعها على السطح كان واضحاً بما يكفي؛ وقد أفترض أن التقليل يجب أن يكون متدرجاً رياضياً من الأسفل إلى الأعلى.

"سيد سكراب،" قلت أنا حين عاد ذلك الشخص مجدداً، في الصباح التالي، بهيئة متحمسة. "إن هدي من الإرسال في طلبك هذا الصباح، ليس لترتيب عملية تقليل مدختي، أو خوض أي حديث معين عنها، لكن ببساطة لأسمح لك بكل وسيلة تأكيدية معقولة، إن استطعت تبيان، التخمين الذي نقلته في رسالتك."

مع أنه قد يكون في السر كان غير محبط بعض الشيء، من استقبالي البارد، وهذا مختلف جداً عن ما كان يبحث عنه؛ إلا أنه بكثير من البهجة الظاهرة شرع بالمسح؛ تاركاً الخزائن الصغيرة في الطابق الأول مفتوحة، ممعناً النظر في السرايب على الطابق الثاني؛ يقيس أحدها من الداخل، وثم يقارن ذلك القياس بالخارجي. مزيلاً ألواح المواعد، كان يحدق في الأنابيب. ولكن لا إشارة للعمل المخفي بعد.

الآن في الطابق الثاني كانت الغرف في أكثر ما يمكن تصوره من تشتت. لقد كانت، متعاشقة ببعضها البعض. بمختلف الأشكال؛ ليس من بينها كلها غرفة بشكل مكعب رياضي - ما لم يكن حسب البناء الخبير غير مخفي بالتحديد. باهتمام، تجنباً لإستخدام تعبير واعد، أخذ محيط المدخنة، وقاس مساحة كل غرفة من حولها؛ ثم ذهب أسفل الدرج، وخارج الأبواب، وقاس مساحة الأرض بأكملها؛ ثم قارن المجموع الكلي لمساحات كل الغرف في الطابق الثاني بالمساحة الأرضية؛ وعاد إلي بحماس ليس بضئيل، معلناً أن ثمة فرق لا يقل عن مائتي قدم مربع ونيف - مساحة كافية، بكل أمانة، لخزانه سرية.

"ولكن يا سيد سكراب،" قلت أنا، مداعباً ذقني، "هل وضعت الجدران كلها في الحسبان، الرئيسية والإقطاعية؟ إنها تأخذ بعض المساحة، كما تعلم".

"آه، لقد نسيت ذلك،" ناقرأً على جبهته؛ "لكن،" ظل يحسب في ورقته، "ذلك لن يعوض النقص".

"لكن، سيد سكراب، هل وضعت في الحسبان التجاويف المتعددة للكثير من المواقد في كل طابق، ولجدران النار، والأنايب؛ باختصار، سيد سكراب، هل فكرت في المساحة الحَقَائِيَّة للمدخنة نفسها - ما

يقارب مائة وأربعة وأربعين قدماً مربعاً أو ما إلى ذلك، سيد
سكرايب؟"

"يا له من تصرف غير مسؤول. غاب هذا عن بالي، أيضاً".

"هل غاب، حقاً، سيد سكرايب؟".

تلعثم قليلاً، وانفجر قائلاً، "لكن علينا الآن أن نضع بالاعتبار
المائة وأربعة وأربعين قدماً مربعاً المرصودة للمدخنة. موقفي هو أن
هذه الزوائد تقلل حدود الاستيعاب للخزانة السرية".

عائنته في لحظة صمت؛ ثم قلت:

"لقد انتهى مسحك، يا سيد سكرايب؛ فلتكن في غاية الطيبة
ولتضع إصبعاً على الجزء الدقيق من جدار المدخنة حيث تعتقد أن هذه
الخزانة السرية ستكون، أم أن عصاً من شجرة البندق السحرية
ستساعدك، سيد سكرايب؟".

"كلا، يا سيدي، ولكن عتلة ستفعل" قال هو باستجابة حادة.

هنا، الآن، فكرت في نفسي، قفز القط من الكيس. نظرت إليه بنظرة
هادئة، بدا مرتبكاً منها بطريقة ما. شككت الآن أكثر من أي وقت
بوجود مؤامرة. تذكرت ما قالته زوجتي عن الانصياع لقرار السيد

سكرايب. بطريقة مهادنة، عقدت العزم على الاقتناع برأي السيد
سكرايب.

"سيدي" قلت أنا، "إنني ملزم كثيراً بهذا المسح، حقاً. فقد وضع
عقلي في راحة بال. وبلا شك، أنت كذلك يا سيد سكرايب، يجب أن
تشعر بارتياح كبير يا سيدي،" أضفت، "لقد قمت بثلاث زيارات
للمدخنة، بالنسبة لرجل الأعمال، فالوقت يساوي المال. ها هي ذي
خمسون دولاراً، سيد سكرايب. ها!، خذها. لقد استحققتها. رأيك
يساويها. وبالمناسبة،" - بينما كان يستلم المال بتواضع - "هل يوجد
لديك أي اعتراض بإعطائي أ.. أ.. شهادة صغيرة - شيئاً، قل، مثل
شهادة الباخرة، تشهد أنك، مساح مختص، قد مسحت مدختي، ولم
تعثر على أي سبب للاعتقاد بوجود أي خلل؛ باختصار، أي - أي -
خزانة سرية فيها. هلا تكرمت، يا سيد سكرايب؟".

"لكن، لكن، يا سيدي،" تلعثم هو بتردد صادق.

"هاك، هاك هذا القلم والورقة" قلت أنا، بضمان كامل.

يكفي.

ذاك المساء وضعت الشهادة في إطار وعلقتها فوق موقد غرفة
الطعام، واثقاً من أن النظرات المتواصلة عليها سوف تُحمد لمرة واحدة
وأخيرة حيل وأحلام أهل بيتي.

لكن، لا. مصممة على الاستبداد بتلك المدخنة القديمة النبيلة،
مازالت زوجتي حتى هذا اليوم تأتي على ذكرها، وابنتي آنا
بمطرقتها الجيولوجية، تنقر كل مساحة الجدار، ثم تضع أذنهما لصقه،
كما شاهدتُ طبيب التأمين على الحياة ينقر على صدر رجل، وبعدها
تنحني عليه بحثاً عن الصدى. تكاد في بعض الأماسي أن تفرع المرء
بحديثها عن هذه المهمة الشبحية، وهي ما تزال تتبع الاستجابة القبرية
للمدخنة، تدور وتدور، كما لو أنها تقودها نحو عتبة الخزانة السرية.

"كم تبدو مجوفة"، تصرخ صرخة جوفاء. "أجل، إنني أُصرِّح،"
بنقرة تأكيدية، "ثمة خزانة سرية ها هنا. هنا، في هذه البقعة بالتحديد.
أصعوا! كم هي مجوفه!".

"هراء! يا زوجتي، بالتأكيد هي مجوفة. من سمع عن مدخنة
مُصممة؟". لكن شيئاً لم ينفع. وبدأت بناتي بالعبث، لا معي، بل مع
أمهن.

أحياناً ثلاثتهن يتخلين عن نظرية الخزانة السرية تلك ويعدن إلى
أرض الواقع للهجوم - عن القبح المتجسد في الكومة الثقيلة، مع
تعليقات عن الإضافة الرائعة لعرفة تُدمج على أنقاضها، والتأثير
الجميل للصالة الكبرى المقترحة، والنتائج المريحة للجري المباشر في
اتجاه وآخر في مختلف أقسامهن. شراستهن فاقت تحالف العدوان

الثلاثي لتقسيم بولندا^(١) المسكينة، زوجتي وبناتي كم كان ليسعدهن تقسيم مدختي.

لكن رؤيتي أنني ومدختي، رغم كل شيء، ما نزال ندخن أنا وبيننا، جعلت زوجتي تعيد فتح موضوع الخزانة السرية، متوسعة بالتساؤل عن ماهية العجائب التي هناك، وكم هو مخز، ألا يتم البحث عنها واستكشافها.

"زوجتي"، قلت أنا، "في ظل هذه الأحداث، لماذا نطيل الحديث بشأن الخزانة السرية، بينما تتعلق أمامك هناك شهادة مناقضة من بناء خبير، اخترته بنفسك ليقرر. إلى جانب، أنه حتى لو كانت هنالك خزانة سرية، يجب أن تبقى سرية، وسراً سوف تكون. أجل، يا زوجتي، هنا مرة علي أن أقول أن أذىً لانهاياً حزيناً قد نتج عن التفجير الدنس للتجاويف السرية. مع ذلك وقوفاً في قلب هذا البيت، حتى الآن نحن أوينا حولها، غير مرتابين البتة مما هو مخبأ داخلها، هذه المدخنة قد تحتوي أو لا تحتوي على خزانة سرية. ولكن إن وجدت،

١ - تقسيم بولندا أو تقسيم الكومنولث البولندي الليتواني هو تقسيم تم في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وأنهى وجود الكومنولث البولندي الليتواني. حيث قامت كل من الإمبراطورية الروسية، ومملكة بروسيا وملكية هابسبورغ بتقسيم أراضي الكومنولث بينهم لتوسيع نفوذهم إقليمياً.

فهي عائدة لقريبي. وأمنية تحطيم الجدران المتوارية لموميوز^(١) أعتبرها
أمنية شاعت من سارق كنائس وغد. أجل، يا زوجتي، لقد كان
موميوز غلام فارس حقير، يسترق السمع".

"موسى؟ الحميراء؟ أشياءك المتعلقة بموسى والحميراء؟"^(٢)

الحقيقة هي، أن زوجتي، شأنها شأن بقية العالم، لا تلقي بال تينة^(٣)
بالثرثرة الفلسفية. في ندرة أي رفقة فلسفية أخرى، أنا ومدختي علينا
أن ندخن ونتفلسف سوياً. ونظل مستيقظين حتى وقت متأخر جداً كما
نفعل دوماً. دخان هائل ذلك الذي ننفثه نحن الفيلسوفين المدخنين
العجوزين.

ولكن حرمي، التي تحب أن تدخن من تبغي رغم قلة ما تفعل هذا
مستخدمة السخام، تواصل حربها ضد الاثنين. إني أعيش في رعب
دائم، كالوعاء الذهبي، أنابينا أنا ومدختي سوف تنكسر. ليبقى

١ - Momus: موميوز أو موموس باليونانية شخصية ظهرت في الأساطير اليونانية
كتجسيد للسخرية، وفي عصر النهضة تم توظيفها أدبياً لنقد الطغيان ثم المجتمع المعاصر
في وقت لاحق، وملفيل يصور السيد سكراب هذه الشخصية.

٢ - Momus موميوز، Moses موسى، Mumps مرض الحميراء أو الحصبة الألمانية؛
وكلها كلمات على نفس القافية.

٣ - cares not a fig: لا يلقي بال تينة؛ بمعنى الاهتمام أو التفكير بشخص أو شيء ما
وعادة ما تأتي في سياق سلبي.

مشروع زوجتي الجنوني، معدوم الإجابات. أو، بالأحرى، هي بنفسها تجيب باستمرار مضيقة علي الخناق بحماسها المريع للتطويرات، الذي هو اسم أكثر نعومة للتدمير. يوم نادر ذلك الذي لا أجدها فيه مع شريط قياسها، تقيس صالتها الكبرى، بينما أنا تمسك بعضا قياس على أحد الجوانب، وجوليا تنظر باستحسان من الجانب الآخر. تحذيرات غامضة تظهر في أقرب صحيفة للقرية، مذيلة بالموقع "كلاود"، فحواها أن بُنية ما، تقبع فوق إحدى التلال، لكنها بالمقابل تُخل بمنظر طبيعي جميل. رسائل مجهولة تصل، تهددني بما لا أدري ماذا، ما لم أزل مدختي. كما أن زوجتي، أيضاً، أو أي من يكون، قلب الجيران ضدي ليضايقوني بنفس الموضوع، ويلمحو لي أن مدختي، كشجرة دردار ضخمة، تمتص كل النداءة من حديقتي؟ ليلاً، أيضاً، زوجتي تبدأ عند النوم، الإدعاء بسماع أصوات شبحية من الخزانة السرية. تهجم من كل حذب وصوب، سلام قليل ذلك الذي حظينا به أنا ومدختي.

لولا حاجتنا إلى الأمتعة، لكننا حزمنا أغراضنا معاً ورحلنا من البلد. كم كانت ضيقة مهاربنا! ذات مرة وجدت في أحد الأدراج ملفاً كاملاً لخطط وتقديرات. وفي وقت آخر، عند عودتي بعد يوم من الغياب، اكتشفت زوجتي واقفة أمام المدخنة وهي تحوض محادثة جادة مع

شخص ميزت فوراً أنه مُصلح معماري متطفل، لعدم امتلاكه موهبة في بناء الأشياء كان عازماً دوماً على اقتلاعها؛ في أجزاء مختلفة من البلاد ساد تخلف كبار سن بتدميرهم لمنازلهم قديمة الطراز، وتحديداً مداخنتهم.

لكن أسوأها كان، تلك المرة التي عدت فيها بشكل غير متوقع في الصباح الباكر من زيارة للمدينة، وقبيل الوصول إلى المنزل، بالكاد نجوت من ثلاث كسرات حصية متساقطة. من علو شاهق، عند قدمي. كم كان مرعباً لي مشاهدة ثلاثة همج، وأنا أنظر إلى الأعلى، وهم متسرولين بالجينز الأزرق على وشك البدء بالهجوم الذي طال التهديد به. أجل، بالفعل. مفكراً بتلك الكسرات الحصية الثلاث، أنا ومدختي كانت مهاربنا ضيقة.

مضى الآن ما يقارب سبع سنوات منذ أن صرت ملازماً لمنزلي. أصدقائي من المدينة كلهم يتساءلون لم لا آتي لزيارتهم، كما في سابق الأوقات. إنهم يظنون أنني قد أصبحت شخصاً لا ذِعاً وغير اجتماعي. البعض يقول إنني أشبه بكاره بشر مُطحلب عجوز. بينما الحقيقة طوال الوقت كانت، هي أنني ببساطة حارس دائم لمدختي المطحلبة العجوز؛ وهذا أمر محسوم بيني وبين مدختي، أننا أنا ومدختي لن نستسلم أبداً.

